الفصل الرابع:

الأوضاع الإدارية و الحركات الإستقلالية العربية

في ظل الدولة العثمانية

obeikandl.com

قسمت الدولة العثمانية الوطن العربي إلى ولايات، وكل ولاية يحكمها (والٍ) يلقب بالباشا، وهو بمنزلة نائبٍ للسلطان في حكم الولاية. لذلك فهو يقوم بتنفيذ أوامر السلطان، وتكون مدة ولايته سنة واحدة قابلة للتجديد. وهناك إلى جانب الوالي في سلطة الولاية (رؤساء الجند) وهم قادة الفرق العسكرية (الاوجاقات) التي تدافع عن الولاية ضد الغزو الخارجي كما توكل إليها مسؤولية حفظ النظام والأمن الداخلي.

ويتكون مجلس شورى الوالي المسمى (الديوان) من قادة الفرق، وهم بمنزلة مجلس شورى و رقابة على الوالي؛ إذ لا يمكن للوالي أن يصدر أمراً إلا بموافقة أعضاء الديوان. إلا أن هذا لا يعني أنهم كانوا السلطةَ الوحيدةَ فهناك القوى المحلية التي تلعب دوراً في التأثير على السلطة، مثلما حدث في مصر إذْ أن المماليك المحليين كان لهم تأثيرهم على الرغم من زوال سلطتهم لأنهم اعرف بأهل البلاد وظروفها. وفي كل الأحوال كان الوالي هو صاحب السلطة العليا في الولاية وكان للولاية موظفون يقومون بإدارة أعمالها مثل وكيل الوالي (الكتخدا) والمسؤول عن الشؤون المالية (الدفتردار) والمسؤول عن السلاح و الذخيره (السلحدار) والمكلف بالخزانة العامة (الخزندار) وفي الجانب الإداري فإن الولاية قد قسمت مع تطور نظام الحكم في الولايات إلي متصرفية برأسها متصرف مرتبط بالوالي، وقائمقامية يرأسها قائمقام مرتبط بالمتصرف، وناحية يرأسها مدير ناحية مرتبط بالقائمقام، وآخرها القرية ومسؤولها عادة شيخ القبيلة أو القرية.

الولايات العربية:

١- العراق:

الأطماع الصفوية في العراق

الصفوية هي عقيدة الولاء لإيران عبر انتماء مذهبي مرتبط بنوع من التشيع ظهر مع قيام الدولة في بلاد فارس منذ القرن السادس عشر. وتكمن خطورة الصفوية في أنها منذ البداية تأطرت بإطار سرقت فيه من المذهب الجعفري اسمه، فأساءت إليه لارتباط الصفوية بنزعة عرقية عنصرية شعوبية وباطنية قائمة على الحقد والانتقام من العرب تحت شعارات الثأر لـ (آل البيت).

وقد نشر الشاه إسماعيل الصفوي مذهبه هذا بقوة السلاح والدم في إيران. وكانت أهم الآليات التي اعتمدت عليها العقيدة الصفوية هي نشر فكرة مظلومية الشيعة في الأرض العربية وعمدت الى تزوير الحقائق بِشتَّى الطرق من أجل رفع شأن ايران وإهانة العرب بما فيها اختلاق القصص الكاذبة عن أل البيت والصحابة. وتذكر بعض المصادر ان الصفوية ذهبت إلى أبعد من هذا بالقول بعدم صحة القرآن الكريم الذي جمعه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه والادعاء أن القرآن الصحيح هو الذي كتبه وجمعه الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ونتيجة الصراعات بعد وفاة الرسول ﷺ أخفاه الإمام عليٌّ عند زوجته فاطمة الزهراء بنة الرسول واستمر تداوله لدى آل البيت إلى أن اختفى مع الامام المهدي المنتظر وسيخرج هذا القرآن للخلق أجمعين مع ظهور المهدي في آخر الزمان.

لقد أفرغت الصفوية الفكر الشيعي من فلسفته ومضمونه واجتهاده الديني المعروف والموصوف بأعلى الرتب الفقهية والعلمية لتستخدم المذهب كواجهة سياسية لصالح إيران فأعطت الصفوية تصوراً مغايراً لمبادئ الإمام جعفر الصادق إمام المذهبين الحنفي والمالكي ونسبت إليه أفكاراً لم يطرحها لأنها تناقض تعاليم الإسلام وأصوله ومنها ولاية الفقيه التي جاء بفكرتها الخميني في إيران بهدف إعطاء رجال الدين والمرجعيات صفة القدسية مع الحطَّ من منزلة رجال الدين في المذاهب الإسلامية الأخرى واعتبروا سبَّ الصحابةِ ابي بكر وعثمانَ وعمرَ فيه ثوابٌ وشفاعةٌ لهم عند آل البيت وقد اتجهت الصفوية إلى إشاعة الفتنة الطائفية والكراهية بين المسلمين وأباحت تكفيرَ مَنْ هم مِنْ غير مذهبهم من المسلمين وقتلهم.

كان العراق من أبرز الأقطار العربية التي ابتليت بالأطماع الصَّفويَّة، وإذا ماعدنا قليلاً إلى الوراء فإن العراق قد عاش حياةً مضطربةً، ومتخلفةً بعد احتلال المغول لبغداد عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ وسقوط الدولة العباسية، فقد حكمته أقوامٌ ودولٌ أجنبية، والتي ابتدأت بدولة المغول الألخانية، ثمَّ دولة الخروف الأبيض، والخروف الأسود إلى أن احتلّه الصفويون الفرس في زمن إسماعيل الصّفويّ عام ١٥٠٨م وقد شكل هذا الاحتلال خطراً على الدولة العثمانية في حدودها الجنوبية خصوصاً وأن هناك صراعاً مذهبياً بين الدولتين،إذْ ان إسماعيل الصفوي أشاع المذهب الصفوي في إيران بالقوة بعد أن كانت إيران سنية، في حين أن الدولة العثمانية كانت سنية المذهب. وكان هذا أحدَ العوامل التي دفعتْ السلطانَ العثمانيَّ سليمَ الأولَ إلى مهاجمة إيران والانتصار عليها في معركة جالديران عام ١٥١٤م، ودخل عاصمتها تبريز، وسيطر على شمال العراق بينما بقي جنوب العراق ووسطه تحت السيطرة الصفويّة إلى أن جاء السلطان سليمان القانوني، واحتل بغداد عام ١٥٣٤م ليصبح جميع العراق تحت السيطرة العثمانية.لكن الصفويين الفرس هاجموا العراق عام ١٦٣٣م واستولوا عليه لمدة خمس سنوات تقريباً، الى أن استلم السلطان مراد السلطة في الدولة العثمانية، فقاد حملةً عسكريةً وأعاد العراق إلى الدولة العثمانية عام ١٦٣٨م.

إنَّ سقوط الأسرة الصفوية في إيران لم يوقف الأطماع الإيرانية الفارسية في العراق، فحالما ظهرت شخصية قوية في إيران مثل نادر الشاه تحرك هذا الأخير عام ١٧٣٣م للسيطرة على العراق لكنه فشل، وأعاد الكرة خلال الفترة ١٧٤٣ ـ ١٧٤٧ عندما هاجم البصرةَ وبغدادَ والموصلَ، فقاومه العراقيون بقوةٍ وفشل في اقتحام الموصل وبغداد على الرغم من الحصار الطويل الذي فرضه عليها. كذلك فإن كريم خان الزيد وهو أحد القادة الإيرانيين قد هاجم هو الأخيرالعراق لاحتلاله.

حكم المماليك:

إن هذا الصراع الطويل قد دفع السلطة العثمانية إلى تعيين ولاةٍ أتراكٍ أشداءَ أقوياءَ لحكم العراق، وقد وجدوا في حسن باشا وولده أحمد غايتهم في الحفاظ على سلطتهم في العراق، فقد أثبت حسن باشا منذ تعيينه والياً على العراق عام

١٧٠٤م جدارةً في حفظ النظام، وتمكن عام (١٧٠٤م ـ ١٧٣٤ م) من السيطرة على الأوضاع في العراق بتكوينه قوة عسكرية من المماليك، ومثله فِعْلُ خليفته ابنه أحمد باشا، وأصبح لهؤلاء المماليك مكانةً كبيرة لدى حسن باشا وولده أحمد؛ وذلك لدورهم المهم والرئيس في القضاء على الثورات المستمرة للقبائل العربية في العراق، ووصلت ثقة أسرة حسن باشا بالمماليك أنَّ أحمد باشا زوّج ابنته إلى قائد القوات المملوكية في العراق سليمان أغا، وجعله نائباً عنه في الولاية.

أصبح حكم حسن باشا ومن بعده ولده أحمد باشا مستقلاً عن الدولة العثمانية من الناحية العملية، بمعنى أن حكمهما كان اسمياً على العراق، ولذلك حاولت السلطنة العثمانية إعادة سلطتها المباشرة على العراق عند وفاة أحمد باشا عام ١٧٤٧م بتعيين والٍ تركي جديد من اسطنبول، لكنّ سليمان أغا الذي كان يقود حملةً عسكريةً في البصرة عاد إلى بغداد وأعلن أنه الوالي الشرعي بعد أن ساانده جنوده وطلب من السلطان العثماني إصدار أمر بذلك، فقبل السلطان بسبب الظروف التي تمر بها علاقته مع إيران، وخوفه من حدوث اضطرابات، وأصدر أمراً بتعيينه والياً على العراق عام ١٧٤٩ م ليبدأ حكم المماليك في العراق الذي استمر حتى عام ١٨٣١ م في نهاية حكم الوالي داود باشا، الذي كان من أبرز ولاة العراق في تلك المرحلة، وقد شبهه البعض بمحمد علي باشا والي مصر لأنه أصبح مستقلاً عن الدولة العثمانية إلا في العلاقة الرسمية الاسمية.

حاولت الدولة العثمانية إنهاء حكم المماليك في العراق عدة مرات لكنها خابت، خصوصاً وأَن بعض هؤلاء المماليك الولاة ومنهم؛ سليمان باشا الكبير قد أقام علاقات جيدة مع البريطانيين من خلال شركة الهند الشرقية، مستغلًا تدهور الدولة العثمانية وضعفها، وتغلغل النفوذ الأوربي فيها، مما مكن سليمان باشا الكبير من البقاء والياً على العراق برعاية بريطانية لمدة ٢٢ عاماً من الفترة (١٧٨٠ ـ ١٨٠٢)، وجاء من بعده الوالي حافظ على باشا وسليمان الصغير إلى أن استلم الولاية داود باشا.

الوالي داود باشا (١٨١٧ ـ ١٨٣١)

كان آخر ولاة المماليك الأقوياء المستقلين في سلطتهم عن السلطان العثماني هو داود باشا، ويعود أصله إلى جورجيا حيث بيع في طفولته إلى والي بغداد

سليمان باشا الذي زوجه ابنته، وبعد وفاة سليمان باشا لم يبْقَ له مكانة في الولاية فأصبح معلماً في أحد مساجد بغداد، ومن خلال عمله هذا تكوّنت له علاقات مع شخصيات اجتماعية ببغدادٍ، إضافةً إلى تشكيله مجموعة من الأتباع المماليك مما ساعده على أن يصبح والياً على بغداد.

حكم داود باشا بشكلٍ مطلقٍ لاينازعه أحد في سلطته لمدة أربعَ عشرةَ سنة تقريباً، خاض خلالها حروباً ومعاركَ ضد القبائل العربية الثائرة، وكذلك تمرد الأكراد شمال العراق، وتمكّن من إخماد تلك الثورات، ولكنَّ اخضاعَ الأَكراد أدى إلى اصطدامه بالإيرانيين الذين وقفوا مع الأكراد ضد داود باشا، وكان لهذا أثره في تحجيم المطامع الإيرانية في العراق ومحاربتها. ولم ينته هذا الصراع إلا بتوقيع معاهده أرضروم بين العثمانيين والإيرانيين في مارس / آذار ١٨٢٣م التي أعادتْ كردستان العراق إلى سلطة والي بغداد والدولة العثمانية.

إلى جانب هذه العمليات العسكرية عمل داود باشا على الاهتمام بالزراعة والتجارة والصناعة، وإجراء الإصلاحات في العراق، ويرى بعض الباحثين أنه بعملية الإصلاح كان يحاكي محمد علي باشا في مصر الذي عاصره، بل إنه تصرف مثله في عدم الاهتمام بالسلطان العثماني، عدا ذكر اسمه في الدعاء له في الصلاة وعلى المنائر.

وعندما حلَّ السلطانُ العثماني الجيشَ الانكشاريَّ بدأ داود باشا بالإعداد لجيشٍ جديدٍ في العراق، وجاء بضباطٍ فرنسيين لتدريبه بعد أن رفض الإنجليز ذلك، وأنشأ المصانع الحربيّة بإشراف خبيرٍ سويسريٍّ لمدِّ جيشه الجديد بالأسلحة والمعدات، وبدأ يخطط لجعل العراق ممراً مائياً تجارياً بين الهند وأوروبا عن طريق نهر الفرات وذلك باستخدام السفن التجارية.

ومن الملاحظ ان علاقة داود باشا بالإنجليز لم تكن جيدة؛ لذلك رفضوا مساعدته في تطوير قدراته، ويعود ذلك إلى موقف داود باشا من نشاط القنصل البريطاني واتصالاته بالأتراك وشيوخ القبائل وزعماء العوائل، مما أثار مخاوف داود باشا، وأعلن عام (١٨٣٠م) أنه لا توجد حقوق أوروبيّة ببغداد، وقام بزيادة الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية، مما كان له أثره في الكيد والدس عليه من قبل البريطانيين لدى السلطان العثماني.

لقد تصرّف داود باشا في العراق على أنه سلطة مستقلةٌ تماماً عن الدولة العثمانية، إلى درجة انه رفض دفع أموال إلى السلطان العثماني، حينما طلب من ولاة الدولة العثمانية المساهمة في دفع الغرامة الحربية الكبيرة التي فُرِضَتْ على العثمانيين نتيجة هزيمة الدولة العثمانية أمام روسيا، وقام داود باشا بقتل المبعوث التركي للسلطان في ديسمبر / كانون الأول، مما أجبر الدولة على إعلان تمرد داود باشا وإرسال جيش لقتاله. ففي عام ١٨٣١ أرسل السلطان محمود الثاني جيشاً إلى بغداد اقتحمها بسهولة نتيجة تفشي الطاعون فيها، واستسلم داود باشا ونفي إلى الحجاز حيث استقر للعبادة والتدريس في الحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة إلى أن مات فيها. وبانتهاء ولاية داود باشا عاد الحكم المباشر للدولة العثمانية على العراق منذ عام ١٨٣١.

العراق بعد داود باشا:

كان لغياب داود باشا عن حكم العراق أثره في اضطراب الأوضاع، وقيام حركات التّمرّد ضد الدولة العثمانية التي عاد حكمها مباشراَ على العراق، وكان لسياسة القضاء على مظاهر استقلال العراق عن السلطة المركزية قد أدت إلى إرباك الولاة العثمانيين وضعفهم، فبعد غياب داود باشا عام ١٨٣١م عجزت السلطة عن القضاء على ثورات القبائل العربية، ولم تتمكن من وضع حدٍّ للقتال فيما بينها. ولاشك في أن مساندة محمد علي باشا والي مصر لهذه القبائل في ثوراتها واندفاعاتها كان له أثره في عجز الولاة عن مواجهتها، ذلك أن محمد علي باشا كان يطمح إلى ضم العراق بعد أن وَحَّدَ مصرَ وبلادَ الشام والحجاز والسودان، أما الأكراد في شمالي العراق فقد استمرت حربهم مع الولاة الأتراك ايضاً وبمساعدة من إيران وشهدت الفترة (١٨٣١م - ١٨٤٢م) معارك طويلة مع الأكراد إلى أن عقدت في مايو/ مايس. أيار ١٨٤٢م معاهدة أرضروم الثانية بين الدولة العثمانية وإيران، لكن هذه المعاهدة لم تنه تماماً الانتفاضات الكردية ضد الحكم التركي المباشر.

الوالي مدحت باشا (١٨٦٩ . ١٨٧١م):

في خضم هذه الأوضاع المضطربة عُهِدَ بولاية العراق عام ١٨٦٩ إلى شخصيةٍ إداريةٍ وقياديةٍ وإصلاحيةٍ هو (مدحت باشا) الذي شهد العراق في عهده نهضةً

واستقراراً، و كان من إنجازاته الإدارية تنفيذ تقسيم العراق إدارياً إلى ثلاث ولايات للسيطرة عليه، ففي عام ١٨٧٤م استحدثت ولاية بغداد وولاية البصرة، وفي عام ١٨٧٩ وبعد رحيل مدحت باشا ببضع سنواتٍ استُحدِثَتْ ولاية الموصل.

أما عن إصلاحاته الأخرى؛ فهي تطوير التعليم في العراق، والاهتمام بالرعاية الصحية من خلال إيجاد نظام الحجر الصحي. وكان من أهم إنجازاته: إيجاد نظام (الطابو) في العراق بهدف استقرار القبائل العراقية، حيث تقوم إدارة الطابو (أي إدارة تسجيل الأراضي) ببيع أراضي الحكومة بأسعار رمزية وبإقساط سهلة الدفع إلى شيوخ القبائل؛ للحصول على أراضٍ لقبائلهم لزراعتها والاستقرار فيها، فأصبح الكثير منهم ملاكا زراعيين وإقطاعيين. كما قام مدحت باشا بإنشاء مدينتي الرمادي في غرب العراق والناصرية في جنوبه للتشجيع على الاستقرار وخصوصا القبائلَ الرُّحَّلَ غيرَ المستقرة. واهتم مدحت باشا كذلك بطرق المواصلات بين العراق وأوروبا بعد فتح قناة السويس وبطريقٍ ربط العراق بسوريا وتركيا ومن ثم أوروبا. وقام مدحت باشا بإنشاء جريدة الزوراء، وجلب مطبعةً لها، وأدخل نظام الخدمة العسكرية. وهناك مشاريع أخرى توقف تنفيذها بعد نقل مدحت باشا إلى أدرنة عام ١٨٧١.

العراق قبل الحرب العالمية الاولى

إن الفترة التي أعقبت حكم مدحت باشا وحتى قيام الحرب العالمية الأولى هي فترةُ النهضةِ الفكريةِ والسياسيةِ العربيةِ في العراق وبلاد الشام ومصر خاصةً، والوطن العربي عامّةً، ولذلك شهد العراق بولاياته؛ بغداد، والموصل، والبصرة، نهضةً فكريةً قادتها النُّخبة العراقية؛ من أدباء، وشعراء، وصحفيين، ومحامين، ومعلمين.

وكانت البداية مع إعلان الدستور العثماني في ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦ والذي اعتبر تتويجاً لحركةِ الإصلاح العثماني، وأطلق عليه المؤرخون العهد الدستوري الأول؛ (المشروطية الأولى) لأن العمل بهذا الدستور قد توقف بعد فترة قصيرةٍ من البدء به ولمدة ٣٢ سنة، إلى أن أعيد العمل به بعد الانقلاب الذي قادته جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م، وسمي بالعهد الدستوري الثاني (المشروطية الثانية)، والذي استمر نافذاً إلى سقوط الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.

كان العراق جزءاً من الدولة العثمانية فشمله العهد الدستوري، لكنه عانَى من الاضطهاد والتعسف بعد إيقاف العمل بالدستور.

من جانبٍ آخر كانت النّهضة الفكرية تتطور خلال هذه الفترة، ولذلك وعندما أعيد العمل بالدستور عام ١٩٠٨ استقبلت بغداد أخباره وإجراء الانتخابات لجمع البرلمان بالاهتمام، إلا أنَّ هذا الاهتمام لم يكن حماسياً، وعموماً كان هناك تساؤل وترقب حول طبيعة الانتخابات والدستور لأن المجتمع كان يجهل هذا الأمر خصوصاً وأن العهد الدستوري الأول لم يشهد انتخابات وإنما اختير النواب من قبل المجالس الإدارية. وفي كل الأحوال فإن العراقيين فهموا الدستور على أنه وسيلةٌ للتخلص من ظلم الولاة والموظفين الأتراك. وعندما أُجريت الانتخابات النيابية في الولايات العراقية، ظهرت الدعوات لانتخاب المرشحين العرب بدلاً من الأتراك بعد أن ظهرت السياسة العنصرية التركية لجمعية الاتحاد والترقي.

وشهد العراق صدور عدد كبير من الصحف والمجلات، ونشطت الحركة الفكرية بشكل واضح مع ظهور أحزاب وجمعيات سياسية ذات طابع عروبي، يدعو لحقوق العرب القومية و الحكم الذاتي لهم داخل إطار الدولة العثمانية، وكانت هذه الحركة الفكرية السياسية جزءاً من النهضة العربية التي شملت بقية أجزاء الوطن العربي، والتي أدّت لاحقاً إلى قيام الثورة العربية عام ١٩١٦ م وشارك فيها الضباطُ والسياسيون العراقيون. ومع قيام الحرب العالمية الأولى واحتلال العراق من قبل البريطانيين ودخولهم بغداد في ١١ آذار ١٩١٧م، انتهى حكم الدولة العثمانية فيه لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ العراق بعد عام ١٩١٨م.

٢- بلاد الشام

قام العثمانيون بتقسيم بلاد الشام إلى ثلاث ولايات: هي ولاية حلب؛ وتضم شمالي بلاد الشام، و ولاية طرابلس؛ وتضم طرابلس و حمص وحماة وسط بلاد الشام، وولاية دمشق؛ وتضم سنجق صيدا وسنجق بيروت والقدس ونابلس وغزة وتدمر، جنوبي بلاد الشام. وقد بقي هذا التقسيم معمولاً به إلى سنة ١٥٦٠حين استحدثت ولاية رابعة أطلق عليها ولاية صيدا(فلسطين) التي فصلت عن ولاية دمشق.

كانت السلطة العثمانية تميل إلى تعيين ولاة أتراك بدلاً من ولاة محليين من العرب، لكنَّ ذلك لم يمنع من تعيين ولاة عرب من سكان الولاية ذاتها بعد أن ظهرت شخصيات وعوائل قوية في الولايات العربية، فرضت نفسها من خلال موقعها الاجتماعي، أو من خلال قوتها المحلية وكان لهذا الأمر أثره في ظهور الحركات الاستقلالية العربية التي أضعفت من سلطة الأتراك العثمانيين وجعلتها مجرد سلطة اسمية، كما حدث في بلاد الشام ومصر.

حكم آل العظم في ولاية دمشق:

لم تقف هذه العائلة بوجه الأتراك العثمانيين، ولكنها بكسب رضاهم حافظت على عروبة ولاية دمشق، بل إن السلاطين العثمانيين اضطروا إلى الرضوخ للأمر الواقع، ودعم هذه الأسرة العربية في حكمها لسوريا، بدلا من المجيء بولاة أو حكام أتراك؛ لأن هذه الأسرة أثبتت جدارتها في ضمان الأمن والاستقرار، بعد أن كانت سوريا عُرضةً لصراعاتٍ واضطراباتٍ سببها القوات الإنكشارية التركية، التي لم يبقَ لها عملٌ بعد توقف التوسع العثماني، وانتهاء العمليات العسكرية، فأصبحت هذه القوات العسكرية وبالاً على الدولة العثمانية.

كان السلطان العثماني حريصاً على استقرار دمشق؛ لأنها تتحكم بطريق الحج الآتي من تركيا ومن شمالي سوريا، ولأن على حاكم ولاية دمشق أن يحمي الطريق إلى الحجاز من هجمات البدو من خلال قوات عسكرية ترافق الحجيج إلى مكة المكرمة، ويؤمِّن لهم أيضاً حاجتهم من طعام وشراب. ونظراً لصعوبة هذه المهمة فقد كان السلطان العثماني مضطراً إلى تبديل الباشوات الذين يحكمون ولاية دمشق إلى أن وجد السلطان ضالته في أسرة آل العظم العربية السورية، التي تمكّنت من القيام بواجبها، مما أدى إلى إطالة مدة ولاية العائلة، والتزام السلطان بهم على الرغم من أن السلطنة لم تكن تميل إلى حكم العوائل؛ خشية تزايد نفوذها وتمردهم عليها. لقد حافظ باشوات آل العظم على الاستقرار في ولاية دمشق، وظهرت شخصيات قوية منهم تمكنت من دحر حركاتِ التمرد وإخضاعِها، مما أدى إلى استمرار حكم آل العظم لحوالي اثنين وستين عاماً (١٧٢٤ ـ ١٧٨٦)، رغم ضيق السلطنة العثمانية بهم بسبب اتساع نفوذهم.

ولاية طرابلس(لبنان)

يشكل لبنان جزءاً طبيعياً من بلاد الشام، وقد شملته الهجرات العربية من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام و بعد ظهوره و انتشاره؛ لذلك أصبح لبنان عربي اللغة والثقافة و التراث الحضاري، منذ عهد الدولة العربية الإسلامية التي تعرض لبنان خلالها لغزوات من خارج الوطن العربي، و منها الغزو الفرنجي (الصليبي) على سواحله، لكنه لم يستمر طويلاً وقضي عليه.

وعندما أصبح لبنان تحت الحكم العثماني، حضر الأمير اللبناني فخر الدين المعني الأول إلى دمشق على رأس جماعة من أمراء لبنان للترحيب بالسلطان سليم و تقديم فرائض الولاء له، فخلع السلطان سليم لقب (سلطان البر) على الأمير فخر الدين. و عندما قسمت بلاد الشام إداريا تجزأت لبنان بين ولايتي طرابلس ودمشق. و عموماً فإن هذه التقسيمات الإدارية الداخلية لبلاد الشام لم تمنع من ظهور إمارة عربية في وسط لبنان و جنوبه أقامها الأمير فخر الدين المعنى. وقد بلغت هذه الإمارة أوجها زمن حفيده فخر الدين الثاني ١٥٩٠م-١٦٣٠م و انتهت بموت آخر أمرائهم أحمد المعني عام ١٦٩٧م،ثم خلفهم الأمراء الشهابيون الذين سيطروا على لبنان حتى منتصف القرن التاسعَ عشرَ. و قد شكلت هذه الإمارات وخصوصاً إمارة فخر الدين الثاني طموحاً عربياً واضحاً للتخلص من الهيمنة التركية.

فخر الدين الثاني و توجهاته العروبية:

شهدت فترة حكم الأمير فخر الدين المعنى الثاني تألقاً لبنانياً عروبياً واضحاً، حيث تحالف مع جميع أمراء لبنان من الشهابيين و غيرهم، و بنى القلاع و رمم المتهدم منها و ازدهر الاقتصاد و الأمن في عهده و استورد المدافع من أوربا وتطورت علاقاته معها. و اتسم عهده بالتسامح الديني و انعدام الطائفية. كما بدأ يعد جيشه للثورة ضد الأتراك العثمانيين و التخلص منهم، و استولى على بعلبك عام ١٦١٠م وهدد باحتلال الشام. تنبهت الحكومة التركية العثمانية إلى سياسة فخر الدين الثاني واعتبرته خطراً عليها شأنه شأن والده قرقماس و جده فخر الدين الأول، فأرسل السلطان العثماني جيشاً برياً و أسطولاً بحريا للقضاء عليه، فغادر فخر الدين لبنان لعدم قدرته على مواجهة هذا الجيش، والتجأ إلى إيطاليا ثم إسبانيا، ورفض

دعوات الإسبان له لأن يصبح واليا على إحدى المناطق الإسبانية مقابل أن يغير دينه من الإسلام إلى المسيحية. وعندما حصل تغير في حكومة اسطنبول واستبدل والي دمشق، عاد فخر الدين الثاني إلى لبنان و استقبله اللبنانيون بحفاوة. واسترجع حكمه و سلطته على إمارتة عام ١٦١٨م. ولم يكتف بهذا بل بسط سلطته خارج حدود إمارته فأصبحت سوريا الشمالية تحت حكمه. و في سنة ١٦٢٣م أقطعه السلطان العثماني سنجق نابلس و عجلون، وفتحت الطريق أمامه إلى فلسطين و شرقي الأردن مما أثار والي دمشق مصطفى باشا فهاجمه و لكن فخر الدين دحره في عنجر، و كان السلطان العثماني في حينها مراد الرابع البالغ من العمر اثنيْ عشَرَ عاماً فأصدر أمرا سلطانياً اعترف فيه بالأمير فخر الدين الثاني والياً على المناطق العربية التي تمتد من حلب إلى مصر و منحه لقب (سلطان البر و أمير عربستان)

قام فخر الدين بتطوير إمارته العربية عمرانياً و اقتصادياً و أقام العلاقات مع دول أوربية، و كان لتسامحه الديني أثره في التفاف الناس حوله من مختلف الطوائف و الأديان مما أثار الشك فيه مره ثانية من قبل الأتراك العثمانيين فأمر السلطان مراد الرابع عام ١٦٣٣م،أي: بعد عشر سنوات من منحه لقب سلطان وأمير من قبل السلطان نفسه، والي دمشق أحمد باشا بمقاتلة الأمير فخر الدين والقضاء عليه، وهاجم الأسطول العثماني الموانئ و الحصون، و دارت معارك عنيفة قتل فيها ابن فخر الدين الأمير علي، ولم يتدخل أصدقاؤه الإيطاليون و غيرهم ولم يقدموا له المساعدة، فاضطر إلى الالتجاء لإحدى القلاع، ولكن الأتراك طاردوه إلى أن أسروه مع ثلاثة من أبنائه و اقتيد إلى اسطنبول، حيث أشيع كذباً انه أرتد عن الإسلام فاصدر المفتي الأكبر أمراً بإعدامه و نفذ عام ١٦٣٥م، كما قتل أولاده أيضا، ولم يبق من ذريته غير ولده الصغير حسين الذي أصبح فيما بعد سفيرا في الهند.

الشهابيون و تصاعد الوعي العربي ضد الأتراك:

تدهورت أحوال لبنان بعد انتهاء حكم المعنيين و سادت الفوضى و النزاعات مما اضطر وجهاء لبنان إلى الاجتماع عام ١٦٩٧م و انتخبوا الأمير بشير الشهابي أميرا عليهم، وهو ابن أخت الأمير أحمد المعنى آخر أمراء المعنيين لكن السلطنة العثمانية رفضت هذا الترشيح و طلبت من والي صيدا إبلاغهم أن ينصب الأمير حيدر الشهابي ابن بنت أحمد المعني و عمره اثنا عشَرَ عاماً، وأن يستلم سلطة

الإمارة حالياً بالنيابة عن المرشح الأول بشير الشهابي لحين بلوغ حيدر سن الرشد. و قد تم تنفيذ هذا القرار و أصبحت عاصمة المعنيين القديمة (دير القمر) مقرّاً للإمارة الشهابية.

حكم الأمير بشير إلى سنة (١٧٠٦م) ثم تولى الأمير حيدر الحكم إلى سنة (١٧٣٢م) و تبعه ابنه ملحم الذي تخلّى عن الإمارة و انصرف إلى حياة الزهد فارتبكت العائلة الشهابية، و تنازع الأولاد و الأعمام على السلطة إلى أن بلغ الأمير يوسف بن ملحم الشهابي سن الرشد، فاستلم الإمارة و تنازل أعمامه له، و أُعلِن حاكماً على لبنان بموافقة الباب العالي.

ظهر في مدَّةِ حكم الأمير يوسف قائدان آخران في بلاد الشام هما ظاهر العمر الذي كان حاكماً لصفد و عكا، و أحمد الجزار الذي أصبح حاكماً على عكا من بعده و اشتهر في صموده أمام غزو نابليون لمدينة عكا و تقهقره أمام أسوارها. فذاع صيت الجزار و توسعت سلطته من فلسطين إلى سوريا و لبنان، فأنعم السلطان العثماني عليه بأن أصبح والياً لدمشق. و أصبح مهيمناً على شؤون لبنان لحوالي ربع قرن من الزمن بعد أن تحالف مع الجنبلاطيين. لكنه اصطدم بالشهابيين وأعدم أميرهم يوسف الشهابي شنقاً بعد أن هزمه في معركة قب الياس سنه (١٧٨٨م)، وانتخب الأمير بشير الشهابي بأمر الجزار حاكماً على لبنان. كان الأمير بشير الشهابي طموحاً وحاول توسيع سلطته خارج لبنان لكن قوة سلطة الجزار منعته واضطر لمغادرة لبنان إلى مصر بعد أن غضب منه الباب العالي العثماني.

توثقت علاقة الأمير بشير بوالي مصر محمد علي باشا صاحب المشروع النهضوي العربي بعد أن لجأ إليه فتوسط له محمد علي عام (١٨٢١م) لدى السلطان ليعفو عنه، فعاد الأمير بشير الثاني إلى لبنان و لعب دوراً مهماً في مساعدة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا في حملته على بلاد الشام لتوحيد مصر و بلاد الشام، فقد سهل له دخولها، واشتراك جنوده اللبنانيين مع الجنود المصريين في معارك فتح عكا و طرابلس وحمص و دمشق، وتسلم أبناء الأمير إدارة هذه المدن بعد فتحها من قبل إبراهيم باشا.

إن ارتباط الأمير بشير مصيرياً بمحمد علي باشا قد أنهَى سلطته و سلطة أبنائه عندما اندحر محمد علي أمام التحالف الإنجليزي الروسي النمساوي البروسي

العثماني، وحددت سلطته بمصر وراثياً حسب معاهده لندن ١٨٤٠م وانتهى بذلك مشروعه العربي النهضوي، ولذلك وفي تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه استسلم الأمير بشير الثاني للإنجليز و أقام في مالطة مع عائلته و عدد من حاشيته، ثم انتقل إلى اسطنبول و توفي سنة ١٨٥٠م، وفي سنة ١٩٤٧م نُقِلَ رفاتُه إلى قصره في عاصمته الجديدة (بيت الدين).

ويعتبر عصر الأمير بشير الثاني جزءاً من عهد النهضة الفكرية العربية، ففي زمنه تمّ تأسيس العديد من المدارس و المعاهد العلمية و أرسل البعثات إلى القاهرة وشيد معهداً طبياً. و تعتبر اعماله نواةَ النهضةِ العربيةِ الفكريةِ والثقافية في لبنان.

الفتن الطائفية لطمس الهوية العربية بعد الشهابيين:

خلف الأمير بشير الثاني، أميراً شهابياً ضعيفاً هو بشير الثالث، و دام حكمه أكثر من سنة ثم عزله الأتراك العثمانيون لتنتهي سلطة الشهابيين بوقوع الانقسامات و الفتن الطائفية.

إن عودة حكم الأتراك العثمانيين بعد عزل بشير الثالث عام ١٨٤٢م و تعيين والٍ هنغاريٍّ من الجيش التركي على لبنان من أجل العمل على طمس هويته العربية، قد صاحبه إثارة للفتن الطائفية،ومن أبرزها الفتنة الدينية عام ١٨٥٧م بين الدروز و الموارنة و التي أوقعت مذابح بين الطرفين في صيدا وحاصبيا و راشيا وزحلة ودير القمر و قرى أخرى عديدة مجاورة لبيروت، بل إن المذابح امتدت إلى سوريا، و قد لعب القنصل الفرنسي في بيروت دوره في تأجيج هذه الفتنه، تمهيداً لكي يعلن الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث تدخله في لبنان، باحتلال مؤقت لِمُدَّةِ ستة أشهر و بموافقة إنجلترا وروسيا و النمسا و الدولة العثمانية لإنهاء المذابح وبحجة حماية الموارنة الكاثوليك.

إن هذا الصراع الطائفي و الديني قد أدى إلى تكريس هذا الواقع بتقسيم لبنان إلى قائمقامية شماليه مسيحية و قائمقامية جنوبية درزية، وكلاهما مسؤول أمام والي صيدا المقيم في بيروت. ولكن هذا التقسيم زاد المشكلة سوءاً و تفاقم الصراع والقتال و التدخل الأجنبي و منها التدخل الفرنسي عام ١٨٦٠م،وأخيرا تقرر إرسال لجنة أوربية إلى بيروت و الأستانة في يونيو / حزيران ١٨٦١م قامت بصياغة نظام

جديد في لبنان تقرر بموجبه أن تحكم لبنان حكماً ذاتياً تحت رئاسة حاكم مسيحي من غير اللبنانيين تعينه الدولة العثمانية لمدة ثلاث سنوات بعد موافقة الدول الأوربية عليه، وعرف باسم (المتصرف) يعاونه مجلس إداري من اثني عشر عضواً يمثلون الطوائف الرئيسة.

و اختير داود باشا الأرمني متصرفاً، كما قسمت متصرفية لبنان إلى ست مقاطعات على رأس كل منها قائمقام، وبذلك يكون هذا النظام الإداري أول دستور للبنان منذ عام ١٨٦٤م وحتى قيام الحرب العالمية الأولى، لكنه كان دستوراً من أجل التقسيم القائم على أساس الطائفة والدين.

ظاهر العمر وحركته العربية الاستقلالية في ولاية صيدا (فلسطين):

هو ظاهر عمر الزيداني من قبيلة عربية تدعى بني زيدان، كانت تسكن بين دمشق وحلب، وكان الأمير بشير الشهابي الأول قد أقام عمرَ والدَ ظاهرٍ شيخاً على بلاد صفد. ولد ظاهر حوالي عام ١٦٨٩م ونشأ نشأة عربية إسلامية، واتصف بالشجاعة والذكاء، وكانت سمعته حسنة فحصل من باشا صيدا، وهو عربي من آل العظم، على التزام طبرية فحكمها منذ عام ١٧٣٣م، وتميز حكمه بالعدل والأمن والاستقرار مما ساعده على التوسع خارج طبرية وبعلم باشا صيدا الذي لم يكن يرفض طلبات ظاهر العمر، كما أن سكان المناطق التي يضمها إليه كانوا يستقبلون وصوله إليهم بالفرح لما اشتهر به من العدل و الرحمة والقدرة على حمايتهم من السلب و النهب. فذاع صيت ظاهر العمر في فلسطين وبدأت الوفود تأتيه مطالبة إياه أن يكونوا تحت سلطته أو أن يزيل عنهم ظلم حكامهم وملتزميهم الأتراك. ومن الواضح جداً أن ظاهر العمر كانت حركته عربية استقلالية؛ لأنه سعى بكل الوسائل لضم أكبر مساحة ممكنة من بلاد الشام تحت سلطته ليخلصهم من ظلم الحكام الأتراك.

إن هذه المبادئ التي آمن بها ظاهر العمر ومارسها، قد جعلت منه رمزاً عربياً للعدل و المساواة والشجاعة و الأمن وحماية الناس، وعززت من قوته وقدراته في ضم مناطق أخرى من بلاد الشام، فتمكن من الحصول على التزام صفد عام ١٧٣٩م، التي كانت في حينها قلعة حصينة،كما ضم بلاد بشارة الواقعة بين جبل الدروز (الشوف) وبلاد صفد عام ١٧٤٢م، واستخدم القوة والحرب في ضمها عندما وقفت بوجهه المعوقات. وتمكن من الحصول على موافقة والي صيدا في التزام صفد والشوف.

إن اتساع نفوذ ظاهر العمر قد أثار ضده الباشوات العثمانيين القدامى وبدؤوا يحيكون له الدسائس لدى والي صيدا والسلطة العثمانية، لكنه لم يأبه مما أوصله بالنتيجة إلى الصدام مع السلطة التركية العثمانية. وكانت البداية الفعليه لهذا الصدام حين قرر ظاهر العمر أن يأخذ (التزام) مدينة عكا بحجة حمايتها من القراصنة المالطيين،لكن والي صيدا رفض إعطاءها له. وعندما استشار أخاه سعداً نصحه بأن يأخذ عكا بالقوة معللاً ذلك بأن السلطان العثماني لا يهمه من يكون الملتزم أو

المتولي بقدر أهمية دفع الضرائب المقررة له واستقرار المنطقة، إضافة إلى أن قوة ظاهر وتأييد الناس له لن تجعل من السهل على باشا صيدا قتاله، وإن قرر ذلك فإن ما يمتلكه ظاهر من قوة تمكنه من دحره.

اقتحمت قوات ظاهر العمر مدينة عكا عام ١٧٤٤م، وخرج ملتزمها منها فأكرمه ظاهر ثم انتقل ظاهر إلى عكا وجعلها مقراً لسلطته. وعندما علم باشا صيدا بالأمر لم يتمكن من التحرك ضد ظاهر لكنه أظهر له العداء وأخذ يتربص به وكانت هذه بداية الصدام بين باشوات صيدا من آل العظم وظاهر العمر، خصوصاً وأن هذا الأخير قد وسع نفوذه بعد عكا فضم الناصرة وحيفا والبلاد المجاوره لها، مما حرم والي صيدا محمد باشا من الكثير من العوائد والموارد فاستعان بصهره سليمان باشا الذي كتب إلى السلطان العثماني يطلب الموافقة على قتال ظاهر العمر. وعندما وافق السلطان على ذلك قام سليمان باشا ومحمد العظم بحصار ظاهر وقواته في طبرية لمدة ستة أشهر لكنه تمكن من فك الحصار وهزيمة قواتهم، وقتل سليمان باشا ومحمد العظم في المعركة، فأرسل ظاهر العمر جيشاً إلى صيدا تمكن من السيطرة عليها وطرد نائب الباشا منها وأَعْلَنَ توليه عليها، وطلب من السلطان العثماني إصدار فرمان بذلك، فوافق السلطان بعد أن وصلته الأموال الكثيرة والهدايا الوفيرة من ظاهر وأصدر الفرمان (الأمر السلطاني) بأن يصبح ظاهر العمر والياً على صيدا والإقطاعيات التي كانت بيده قبل دخوله صيدا. ولكن الموافقة لم تكن سوى عملٍ مؤقت ريثما تستعد السلطنة العثمانية للقضاء على ظاهر العمر؛ لأنهم استاؤوا وخشوا من هذا النفوذ الذي امتلكه ظاهر خصوصاً بعد أن طور جيشه وحصن أسوار عكا وأبراجها لمقاومة أي عدو له بما فيه القوات العثمانية.

حاول السلطان العثماني التخلص من ظاهر العمر باغتياله لكنه فشل لأن بعض المناصرين لظاهر أبلغوه بنية السلطان؛ ولذلك أصدر السلطان أمراً لظاهر بالتخلي عن ولاية صيدا وتسليمها إلى الوالي التركي الجديد الذي تم تعيينه درويش باشا، وهو ابن والي دمشق عثمان باشا الصادق، وكان ابنه محمد باشا عثمان الصادق قد عين والياً لطرابلس. ولأن السلطان كان يعلم أن ظاهر العمر لن يتخلى عن سلطته بهذه السهولة، فقد أمر الباشوات الثلاث (الاب والابنين) ومعهم باشا حلب وأمير

الدروز بالقضاء على ظاهر العمر وأسرته. إلا أن ظاهر العمر تمكن من دحر القوات المتحالفة ضده وأوقع بها هزيمة نكراء أضعفت من شأن عثمان باشا وولديه. ثم تابع ظاهر انتصاراته بطرد درويش باشا من صيدا، وقام بتعيين نائب له فيها بعد أن حصّنها وعاد إلى عكا ظافراً منتصراً. واستمر بتوسيع إمارته العربية فضم كلاً من يافا والقدس والخليل تلبية لطلبات من أهلها. وأبلغ السلطان العثمانيَّ المهزومةَ قواتُه بذلك، فاضطر إلى الموافقة على طلبه بإصدار إرادة سلطانية بالموافقة على كل الإجراءات التي قام بها ظاهر مقابل خمسمائة كيس من الأموال دفعها ظاهر له. وهكذا ظهرت إلى الوجود قوة عربية في فلسطين خاصة وعموم الشام عامة تحدت الأتراك العثمانيين، وجعلت من نفسها مثلاً بارزا لعزيمة العرب وقوتهم في حكم ديارهم بأنفسهم.

إن الاتجاه العروبي الرافض للهيمنة التركية قد كان من العوامل المهمة التي وثقت العلاقة بين ظاهر العمر وعلى بك حاكم مصر، وكان هذا الأخير يحذر ظاهر من مؤامرات السلطة العثمانية، وأبدَى استعداده للوقوف إلى جانب ظاهر العمر ضد والي الشام عثمان باشا؛ لذلك أرسل على بك الكبير قوات عسكرية من مصر لنجدة ظاهر في حربه مع عثمان باشا والي دمشق،كان لها الأثر في تحقيق الانتصارات على القوات العثمانية وتشجيع ظاهر في الاستيلاء على بيروت بمساعدة الأسطول الروسي الموجود في البحر المتوسط، وطرد حاكمها العثماني أحمد باشا الجزار؛ وذلك بأن روسيا كانت في حالة حرب وعداء مع الدولة العثمانية؛ ولذلك دعمت وشجعت الحركات الاستقلالية العربية في بلاد الشام ومصر. ومن جانب آخر فإن وقوف علي بك الكبير مع ظاهر باشا كان هدفه أيضاً تأمين حدود مصر من جهة بلاد الشام لتبقى بمنأى عن أي خطر عثماني يأتيها منها إضافة إلى أن دعمه لظاهر باشا سيساعد في القضاء على القوات العثمانية التي تتجمع حول الباشوات الأتراك في بلاد الشام.

نهاية ظاهر العمر ومصير بلاد الشام:

كانت القوات المصرية التي جاءت إلى الشام وساندت ظاهر العمر قد عادت إلى مصر بقيادة المملوك محمد بك «أبو الذهب» بعد تحقيق الانتصار على الأتراك

العثمانيين إلا أن أبو الذهب أعلن تمرده بعد عودته إلى مصر ضد رئيسه علي بك الكبير عام ١٧٧٣م، ففرَّ هذا الأخير إلى حليفه ظاهر العمر في بلاد الشام بفلسطين، فتحالف أبو الذهب مع الباشوات الأتراك في الشام وقاد حملة جديدة إلى فلسطين عام ١٧٧٥م ليتعقب علي بك و تمكن من الاستيلاء على الجزء الجنوبي من إمارة ظاهر العمر، ولكن وفاته المفاجأة جعلت جيشه ينسحب عائدا إلى مصر. كان هذا الاندحار العسكري لظاهر العمر أمام أبو الذهب حافزاً قوياً للقضاء على ظاهر، فأرسلت الدولة العثمانية حملة كبيره حاصرت عكا، و استولت عليها وطاردت ظاهر العمر إلى أن قُتِلَ على يد أحد حراسه بتحريض من الأتراك العثمانيين في شهر أغسطس / آب ١٧٧٥ م

أما عن مصير بلاد الشام بعد ظاهر العمر، فإن السلطان العثماني قد أعاد إلى السلطة المملوك المصري الهارب إلى الشام زمن على بك (أحمد باشا الجزّار) مكافأة له على خدماته في القضاء على حركة الشيخ ظاهر العمر، فأصبح والياً على دمشق وطرابلس وصيدا واتخذ من عكا مركزاً له،وبذلك أصبح الجزار الحاكم الفعلي على بلاد الشام

كانت لسياسة الجزار الوحشية والقاسية مع عرب بلاد الشام أثرها في قيام ثورات مستمرة في دمشق وبيروت وصيدا وغيرها من المدن، إلى أن تم تعيين والٍ جديد على دمشق عام ١٧٨٩م. ثم أصبحت البلاد بعد ذلك تحت الحكم الفرنسي عندما غزا نابليون بلاد الشام و صمدت أسوار عكا أمام جيشه الذي تفشت فيه الأمراض واضطر إلى الانسحاب من بلاد الشام إلى مصر،فعادت سطوة أحمد باشا الجزار الذي ادعى أنه كان السبب في دحر قوات نابليون،لكن حكمه لم يدم بعد ذلك طويلا فقد توفي عام ١٨٠٤م، واستطاع قائد جيشه سليمان باشا أن يحكم جنوب بلاد الشام لمدة خمسة عشر عاماً ١٨٠٤م-١٨١٩م بينما حكم الولاة الأتراك ولاية دمشق واستمر الشهابيون في حكم لبنان. إلا أن خليفة سليمان باشا عبدالله باشا قد أعاد إلى أذهان أهل جنوب بلاد الشام قسوةَ أحمدَ الجزار ودمويته.

استقرت الأوضاع في بلاد الشام وعاشت برخاء وأمان عندما فتحتها جيوش محمد علي باشا والي مصر بقياده ولده إبراهيم باشا؛ إذ استقلت بلا د الشام عن

الدولة العثمانية وتوحدت مع مصر فكانت أول خطة لحلم نهضة عربية مستقلة استمر لست سنوات ١٨٣٣. ١٨٣٩م لكن تحالف الأوروبيين مع العثمانيين ضد محمد علي واحتلالهم لبلاد الشام قد أجهض هذا الحكم العربي، فعادت بلاد الشام إلى حكم العثمانيين المباشر بعد أن حددت معاهدة برلين عام ١٨٤٠م حكم محمد علي باشا وراثياً في مصر فقط.

٣- مصر والسودان:

كان اندحار مماليك مصر في معركة مرج دابق شمالي حلب عام ١٥١٦م البداية لاحتلال العثمانيين لبلاد الشام كافةً، ومن ثم مواصلة السلطان العثماني سليم الأول زحفه نحو مصر فاحتلها عام ١٥١٧م، ودخل القاهرة لينهي بذلك دولة المماليك في مصر وبلاد الشام.

أصبحت مصر وأجزاء من السودان تحت سلطة الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر وحتى احتلال نابليون بونابرت لها عام ١٧٩٨م في أواخر القرن الثامن عشر، ثم عادت وبعد انتهاء الاحتلال الفرنسي لها لتصبح هي والسودان تحت حكم محمد علي باشا والي مصر، الذي كان يتبع اسمياً إلى الدولة العثمانية والذي أصبحت مصر والسودان تحت حكم عائلته وراثياً وفقاً لمعاهده لندن عام ١٨٤٠م. وخلال حكم سلالة محمد علي باشا احتلت بريطانيا مصر عسكرياً عام ١٨٨٢م والسودان عام ١٨٨٩م بعد القضاء على الثورة المهدية لينتهي حكم الدولة العثمانية الاسمي عليها، وليستمر مع الاحتلال البريطاني حكم سلالة محمد علي باشا على مصر والسودان.

أ. مصرفي العهد العثماني الاول:

تصارعت على السلطة في مصر بعد احتلالها من قبل العثمانيين قوتان رئيستان نافستا الوالي العثماني في حكمه، وهما قادة الجند من الأوجاقات والبكوات المماليك. وكان المماليك أنفسهم يتنافسون فيما بينهم على منصب (شيخ البلد) وهو حاكم القاهرة الذي يعتبر من أعلى المناصب ويليه أمير الحج،يقابلهم منصب الباشا أو الوالي الذي كان ضعيفاً أمامهم وخصوصاً في القرن الثامن عشر.

إن الصراع على المناصب الإدارية قد كان له تأثيره على الشعب العربي في مصر؛ إذ تدهورت الزراعة والتجارة، وزادت مقابل ذلك الضرائب التي يفرضها شيخ البلد

ومع ذلك فقد ظهرت من بين المماليك شخصيات قوية تمكنت من السيطرة على مصر بعد تصفية الشخصيات والقوى المقاومة لهم وكان أولهم علي بك.

علي بك الكبير واستقلال مصر(١٧٢٨-١٧٧٣م):

ولد على بك سنة ١٧٢٨م في قرية أماسيا في بلاد الأناضول، والده قسيس رومي، وقد خطف علي بك وهو في الثالثَة عشْرةَ من عمره وبيع في القاهرة باسم (يوسف) وتزوج مسيحيه أسلمت على يديه. كان علي مملوكاً لإبراهيم كتخدا، وفي شبابه ظهرت شخصيته القوية وطموحه وقسوته وتقلد المناصب حتى أصبح أميراً للحج وكبيرا للمماليك وأخيرا تقلد منصب (شيخ البلد) عام ١٧٦٣م، وقام بالتخلص من جميع منافسيه في السلطة، أو في المواقع الاجتماعية بما فيهم قادة القبائل العربية. وكان من بين الذين تخلص منهم عبد الرحمن كتخدا الذي نفاه إلى الحجاز وقتل صالح بك فتخلص من منافِسَيْنِ قويَّيْنِ له في مشيخة البلد.

أما عن القوى العربية المحلية التي ثارت ضده، فقد أرسل لها حملات عسكرية وقضى عليها وعلى زعمائها مثل سويلم بن حبيب، وهمام بن يوسف الهواري. واعتمد على بك الكبير في حملاته هذه على مساعدة محمد بك أبو الذهب، كذلك كان أحمد الجزار من مساعديه الذي اشتهر بالبطش و القسوة ضد عرب الدلتا الثائرين.

سيطر علي بك الكبير على مصر كلِّها ولم يبق أمامه سلطة قوية سوى الدولة العثمانية والوالي العثماني في القاهرة، لكن الظروف خدمته عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب مع روسيا، وشعر بحاجتها إلى قوات من مصر، عندها قام بخلع الوالي عام ١٧٦٨م وأعلن نفسه مكانه مع استرضاء السلطة العثمانية بالهدايا والأموال، ولم يكتف علي بك بهذا بل طالب بأن لا ترسل الدولة والياً من اسطنبول إلى مصر ثم أعقبها بهدايا وأموال وخيول مصرية أخرى للسلطان العثماني ورجال دولته مع رسائل من علماء مصر ومشايخها وعلى رأسهم الشيخ حسن الجبرتي، يطلب فيها أن تَنْضَمَّ بلادُ الشام إلى سلطته متحججاً بأن والي دمشق عثمان باشا يعاديه ويُؤوي المصريين الفارين من حكمه ويعاونهم للعودة إلى مصر للتخلص منه، لكنه لم يرده جواب من السلطان العثماني. و استغل علي بك الكبير

طلب السلطنة العثمانية بتهيئة قوات عسكرية لدعم الدولة في حربها مع روسيا فقام بإعداد جيش ضخم وكبير كان هدفه احتلال بلاد الشام وليس معاونة السلطة العثمانية، مما أثار مخاوفها منه ومن احتمال تعاونه مع روسيا التي كانت تحقق الانتصارات على الدولة العثمانية، والتي كانت تشجع القوى المحلية في الولايات العربية للثورة ضد الحكم العثماني.

إن شكوك الدولة العثمانية قد دفعتها إلى التخطيط لاغتيال علي بك، لكنه اكتشف هذا الأمر وقام رجاله بقتل من كلف باغتياله وصور لقادة المماليك على أنها مؤامرة ضدهم جميعاَ فاستمالهم. وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وابلغها بعدم إرسال والٍ عنهم إلى القاهرة. ولم يتوقف علي بك الكبير عند هذا الحد بل عمل على منع إرسال الأموال المقررة سنوياً من مصر إلى السلطة العثمانية، وقام بسك النقود باسمه ودون عليها تاريخ استقلال مصر عن الدولة العثمانية (١١٨٣هـ).

كانت طموحات علي بك الكبير واسعة فقد أراد تكوين دولة عربية تضم مصر والسودان و الحجاز وبلاد الشام وقال: إن ضم الحجاز إلى مصر سيؤمن طريق الحج للمصريين والمغاربة والسودانيين وأهل الشام. وكان يهدف من هذا أيضاً تحويل تجارة جنوب شرق أسيا والهند إلى البحر الأحمر وبرزخ السويس بدلاً من مرورها عبر رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا، وبدأت خطوته الأولى بالاستيلاء على ميناء جدة لجعله مركزاً للتجارة مع الهند ولمراقبة الملاحة في البحر الأحمر وعزل الوالي العثماني منها ونَصَّبَ أحد أعوانه والياً عليها وهو المملوك حسن بك الجداوي. أما عن الحجاز نفسها فقد استغل على بك الخلاف القائم في الحجاز حول مركز (الشرافة) فيها بين الشريف أحمد القائم عليها، وبين ابن عمه الشريف عبدالله الذي يجد نفسه أحق بالشرافة من ابن عمه. فسافر إلى مصر واستنجد بعلي بك الكبير الذي جهز جيشاً كبيراً بقيادة «محمد أبو الذهب» واستولى على الحجاز وأقصى الشريف أحمد الموالي للأتراك العثمانيين وأحل محله ابن عمه الشريف عبدا لله. ونودي بعلي بك الكبير في الحرمين الشريفين باسم سلطان مصر وخاقان البحرين عام ١٧٧٠م.

لم يبق أمام على بك الكبير بعد تحقيق هذه الانتصارات إلا أن يتوجه إلى بلاد الشام، التي كانت تعيش حركة استقلالية عربية بقيادة ظاهر العمر معادية للسلطة

التركية العثمانية مما وثق العلاقة بين على بك و ظاهر العمر ضد الباشوات الأتراك العثمانيين، وهي حجة لتحقيق هدفه الأساسي في تكوين دولته التي يحلم بها ولتبقى جيوش العثمانيين بعيدة عن مصر.

في أواخر عام ١٧٧٠م أصبحت قوات على بك الكبير جاهزة بقيادة محمد أبو الذهب ومعاونيه، فأعلن على بك أن قواته ستتقدم للاستيلاء على بلاد الشام من أجل القضاء على عثمان باشا والي دمشق؛ لأنه يقوم بإيواء خصومه وأعدائه وإعدادهم للهجوم على مصر، ولأنه يعامل أهل الشام معاملة سيئة مما جعلهم يتذمرون من حكمة.

أحرز محمد بك أبو الذهب انتصارات عديدة في بلاد الشام بمعاونة قوات الشيخ ظاهر العمر، وتمكنت قواتهما من الاستيلاء على غزة ويافا ونابلس واللُّد والرمله وصيدا، ثم دخلوا دمشق في شهر أبريل/ نيسان ١٧٧١م. وبسبب خلافات بين القادة لم تتقدم القوات بعد دمشق على الرغم من أمرِ علي بك، بل انسحب محمد بك أبو الذهب من بلاد الشام عائداً إلى مصر مما فسح المجال للقوات العثمانية أن توجه الضربات إلى ظاهر العمر. كما أن هذا الانسحاب قد أساء إلى سمعة علي بك فظهر النزاع واشتد بينه وبين مملوكه وقائد قواته العام محمد أبو الذهب الذي أصبحت له قوة تضاهي على بك الكبير، فاضطر هذا الأخير إلى مغادرة مصر مع جماعته ولجأ إلى صديقة ظاهر العمر في عكا، حيث بدأ بتجهيز قوات بمعونة ظاهر العمر وقائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط و توجه إلى مصر لإعادة سلطته فيها. وفي ٢٦/ أبريل / نيسان ١٧٧٣م واجه علي بك بجيشه جيش محمد أبو الذهب في معركة كان النصر فيها لهذا الأخير وجرح علي بك فنقله أبو الذهب إلى القاهرة وقدم له الرعاية الطبية في ٨ مايو / أيار ١٧٧٣م وأصبح محمد أبو الذهب حاكم مصر الفعلي على الرغم من تعيين والٍ عثمانيٍّ على مصر في ٨ يونيو / حزيران ١٧٧٣م وهو الوزير خليل باشا الذي لم يكن سوى اسم أمام سلطة محمد أبو الذهب، وقد قام أبو الذهب بالقضاء على إمارة الشيخ ظاهر العمر في عكا بعد أن أغراه السلطان العثماني بأن يكون والياً على الشام ومصر مكافأة له. إلا أن «أبو ذهب» توفي في العام نفسه الذي قضى فيه على إمارة الشيخ ظاهر ١٧٧٥م.

ساءت أحوال مصر في عهد خلفاء «أبو الذهب»، وانتشر الظلم والفساد إضافة إلى الخلافات بين المماليك وخصوصاً في عهد كلٍّ من إسماعيل بك، وإبراهيم بك ومراد بك، مما اضطر الدولة العثمانية إلى التدخل بحملة عسكرية عام ١٧٨٦م فعاد إبراهيم ومراد من الصعيد ليستلما السلطة، وتقلدا منصب شيخ البلد وأمير الحج بالتناوب مع وجود الوالي العثماني الضعيف حتى فاجأتهما الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م.

ب - الاحتلال الفرنسي لمصر(١٧٩٨م):

لعبت عوامل عديدة دورها في احتلال فرنسا لمصر ويأتي في مقدمتها تنافسها مع عدوها الذي لا يقهر بريطانيا، فقد أرادت فرنسا أن تجعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية لا تنازعها فيه بريطانيا، وأن تكون مصر قاعدة فرنسية لغزو الهند التي تستعمرها بريطانيا. والسبب في اختيار الفرنسيين لمصر هو موقعها الجغرافي، فهي تربط بين البحر المتوسط و البحر الأحمر من خلال منطقة السويس، كما أنها تتوسط القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا، وأن تحطيم الأسطول البريطاني وغلق طرق التجارة البريطانية و السيطرة عليها هو أفضل بكثير من مهاجمة بريطانيا نفسها.

من جانب آخر كانت الحكومة الفرنسية تريد إبعاد نابليون بونابرت عن فرنسا لتزايد شعبيته بعد انتصاراته في إيطاليا. وهكذا نجد أن التنافس الأوروبي على الوطن العربي ومناطق آسيا مثل الهند للحصول على المواد الأولية للصناعة والموارد الأخرى وفتح أسواق لتلك الصناعة الأوربية كانت السبب الرئيس في تقاسم دول أوروبا السيطرة على الوطن العربي بشكل خاص وآسيا و أفريقيا بشكل عام.

في ٣ تموز (١٧٩٨م) استولت القوات الفرنسية على مدينة الإسكندرية بقيادة نابليون بونابرت، وفي أواخر الشهر نفسه احتل الفرنسيون القاهرة. وعلى الرغم من أنّ نابليون قد وزع منشوراً على المصريين ادعى فيه أنه أقرب إلى المسلمين، وأنه جاء لإنقاذهم من المماليك الذين أعلنوا عصيانهم على السلطان العثماني، هذا السلطان الذي تحبه و تحترمه فرنسا وتخلص له، إلا أن القوات الفرنسية استباحت القاهرة ودخلت الأزهر بخيولها و سرقوا و قتلوا ودمّروا المكتبات، ومزقوا المصاحف وربطوا خيولهم في قبلة الأزهر.

استقر نابليون في قصر محمد الألفي في محلة الأزبكية بمدينة القاهرة و بدأ بتنظيم الإدارة و طريقة حكمه لمصر، ولكنه أصيب بصدمة كبيرة عندما قام الأسطول البريطاني بقيادة الجنرال نلسن بمفاجأة الأسطول الفرنسي الذي كان راسياً في خليج (أبو قير) على الشواطئ المصرية، فهاجمه في شهر آب (١٧٩٨م) وحطم وأغرق معظم السفن الفرنسية، فكانت هزيمة كبيرة لنابليون و لفرنسا. كما أنها أدت إلى انقطاع الاتصال بين نابليون و بين فرنسا.

كانت الدولة العثمانية ما تزال تعتبر مصر جزءاً من أراضيها بعد احتلال نابليون لها وعندما علمت بتحطم الأسطول الفرنسي في أبي قير تشجعت لاستعادة سيطرتها على مصر، فعقدت معاهدة مع عدو فرنسا الأول بريطانيا عام (١٧٩٩م) تَمُدُّ بموجبها يداً لطرد الفرنسيين من مصر. ولما وصلت هذه الأخبار إلى نابليون قَرَّرَ مهاجمة الدولة العثمانية قبل أن تهاجمه فقام بغزو بلاد الشام و احتل في طريقه غزة ويافا وحاصر عكا التي صمدت أسوارها و أهلها بوجهه لمدة شهرين، وقد تفشّى المرضُ بجيشه ففشلت حملته عليها.

عاد نابليون إلى مصر بعد أن وصلته أنباء قيام ثورة شعبية ضده بدأت من الأزهر في حي البولاق ولعب رجال الأزهر دوراً كبيراً فيها. ويذكر أمين سعيد في كتابه «تاريخ مصر السياسي»: أن أهالي القاهرة قاتلوا الفرنسيين في كل شارع ومنزل وقاوموا مقاومة باسلة، ولكن الثورة انتهت لأن نابليون واجهها بالمدفعية والأسلحة الحديثة.

ومع عودة نابليون إلى مصر تدهورت الأوضاع الداخلية في فرنسا وتكون حلف أوربي ضِدَّها مكون من بريطانيا و النمسا وروسيا و الدولة العثمانية، فغادر نابليون مصر سراً إلى فرنسا. وترك قواته تحت قيادة الجنرال كليبر الذي انسحب أمام تقدم القوات العثمانية والبريطانية.

ج- مصر في العهد العثماني الثاني:

بعد مغادرة نابليون بونابرت لمصر، دخل الجنرال كليبر، الذي حل محله في قيادة القوات الفرنسية، في مفاوضات مع الدولة العثمانية للانسحاب من مصر أسفرت عن توقيع اتفاقية العريش في يناير / كانون الثاني ١٨٠٠م ونصت على خروج

الفرنسيين بجميع أسلحتهم من مصر خلال ثلاثة أشهر وعلى نفقة الدولة العثمانية ويحل الجيش التركي محل القوات الفرنسية في المراكز التي كانت تحتلها، لكن بريطانيا رفضت السماح بخروج الفرنسيين من مصر إلا كأسرى حرب، مما اضطر الجنرال كليبر قائد القوات الفرنسية إلى مهاجمة القوات التركية التي وصلت إلى عين شمس في طريقها إلى القاهرة ومزق شملها، واستمرت المناوشات بين الأتراك العثمانيين والفرنسيين إلى أن اغتيل الجنرال كليبر على يد شاب سوري هو سليمان الحلبي في ١٤ يونيو / حزيران ١٨٠٠م فَخَلَفَهُ القائد الفرنسي مينو.

إن إصرار الفرنسيين على الخروج من مصر بشكل مشرف قد أقنع الحكومة البريطانية بصعوبة طرد الفرنسيين من قبل القوات التركية العثمانية من دون تدخل بريطانيا، فأرسلت حملة عسكرية في شهر آذار / مارس ١٨٠١م تمكنت من إلحاق الهزيمة بالجيش الفرنسي، وزحفت القوات البريطانية إلى القاهرة مما اضطر القائد الفرنسي إلى تسليمها والجلاء عن مصرفي شهر سبتمبر / أيلول ١٨٠١م.

بعد خروج الفرنسيين من مصر بقيت القوات البريطانية فيها مع بعض القوات العثمانية، ومن جانب آخر ظهر التنافس بين الأتراك العثمانيين والمماليك للسيطرة على الحكم في مصر. وأخيراً اضطر البريطانيون للخروج من مصر عام ١٨٠٣م نتيجة ضغوط فرنسا والدولة العثمانية بعد أن حاولوا التحالف مع المماليك للبقاء فيها. وقد استمر هذا التحالف المملوكي البريطاني لدرجه أن الإنجليز عادوا لغزو مصر عام ١٨٠٧م فقاومهم الشعب العربي في مصر وهزمهم مرتين في رشيد، مما اضطرهم إلى الانسحاب إلى الإسكندرية ومغادرة مصر.

محمد علي باشا ومشروعه العربي النهضوي(١٨٠٥-١٨٤٨ م):

إن عودة العثمانيين إلى حكم مصر قد صاحبته تحديات جديدة من قبل أمراء المماليك الذي تعاونوا مع البريطانيين؛ لذلك قاموا بإبعادهم وإضعافهم بعد خروج الإنجليز، وقد تمرد المماليك ضد الولاة العثمانيين في مصر لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم.

أدى استمرار الصراع بين الولاة العثمانيين والمماليك إلى حالة من الفوضى وكان آخرها زمن الوالي خسرو باشا الذي ثار الجنود عليه بسبب تأخر رواتبهم.

فهاجموا المدينة القديمة في القاهرة واحتلوا البيوت وقتلوا بعض السكان، فاحتج أهل القاهرة وأعلنوا الإضراب، واتصل علماء الأزهر بالوالي وطلبوا منه إخراج الجند من المدينة وعدم السماح لأي منهم بدخول القاهرة ونقلهم إلى الجيزة كما طالبوا الوالي العثماني بعدم فرض الضرائب إلّا إذا أقرها العلماء ووجهاء الناس. لكن الوالي لم يستجب فقرروا عزله وعينوا محله محمد علي الألباني، وهو قائد للفرقة الألبانية التي شاركت مع الحملة العثمانية في طرد الفرنسيين من مصر وعرف بذكائه ودهائه. واشترط العلماء والوجهاء على محمد علي أن يحكم بالعدل والشريعة، وأن يوقف المظالم، وأن لا يقوم بعمل إلا برأي العلماء إلا أن الوالي العثماني رفض الاعتراف بهذه الإجراءات، فحصلت معارك بين الطرفين انتهت باضطرار السلطان العثماني إلى تعيين محمد علي والياً على مصر يوم ٩ يوليو ـ تموز ١٨٠٥ م.

كان أول عمل قام به محمد علي هو التخلص من المماليك الذين كانوا يناصبونه العداء ويخلقون له الفتن والاضطرابات، فأقام احتفالاً في قلعة القاهرة لمناسبة إرسال أول حملة عسكرية خارج مصر إلى الجزيرة العربية برئاسة ابنه طوسون، ودعا إلى الحفل قادة المماليك وأمراءهم فكان تجمعهم في القلعة وسيلة لإبادتهم فيها،كما طارد أتباعه المماليك في كل مصر وأنهوا قوتهم ووجودهم. وانصرف محمد علي بعد ذلك إلى تكوين جيش من أبناء مصر.

لقد كان محمد علي باشا يخطط لمشروع نهضوي عربي لا يشمل مصر وحدَها وإنما الجزيرة العربية وبلاد الشام والسودان والعراق، وذلك بقيام دولة عربية موحدة ذات أسس حضارية وتنموية مع أنه لم يكن عربياً، ولكن مشاعره وثقافته الإسلامية دفعته بهذا الاتجاه لدرجة أن ولده إبراهيم كان يصرح بأنه عربي وهو جزء من هذه الأمة ويقول: (إن شمس مصر قد طهرت دمي وأحالته دماً عربياً) وكان إبراهيم باشا قد عاش في الأرض العربية وتعلم اللغة العربية الفصيحة ودرس التاريخ العربي.

قام محمد علي بتطوير جيشه وإنشاء أسطول مصري، واهتم بإقامة الصناعات الوطنية المصرية ونشر الثقافة العربية، وجعل من مصر منطلقاً لإنشاء دولة عربية موحدة تضم مصر والجزيرة العربية والسودان وبلاد الشام والعراق. وكانت أولى

الحملات التي استهل بها محمد علي باشا القرن التاسع عشر حملته على الجزيرة العربية خلال السنوات (١٨١١- ١٨١٨م) حين أبحر أسطوله من السويس في شهر / أيلول بقيادة ابنه أحمد طوسون لقتال الوهابيين مستغلاً طلب السلطان العثماني في محاربتهم، وقد حشد في الحملة الجنود الأتراك والألبان القدماء للتخلص منهم.

تمكنت قوات محمد علي من الاستيلاء على المدينة المنورة ومكة المكرمة والطائف وسائر مدن الحجاز لكنها لم تتمكن من القضاء على حكم آل سعود، فأرسل ابنه إبراهيم باشا لقيادة الحملة فاستطاع الاستيلاء على الدرعية عاصمة آل سعود في ٩ سبتمبر / أيلول (١٨١٨م) واستسلم أميرها عبدا لله بن سعود وقيد أسيراً إلى مصر ثم الآستانة. وبعد سقوط الدرعية تمكنت قوات محمد علي باشا من بسط نفوذها على نجد والحجاز والعديد من مناطق الخليج العربي وتهامة وعسير حتى حدود اليمن.

بعد أن انتهت مهام قوات محمد علي في الجزيرة العربية وجه حملة عسكرية جديدة بقيادة ابنه إبراهيم باشا لضم السودان التي تشكل هي ومصر وحدة طبيعية وتاريخية واقتصادية، كما كان له هدف آخر وهو القضاء على المماليك الذين التجؤوا إلى السودان بعد مذبحة القلعة. ففي ١٨ يوليو / تموز ١٨١٨م بدأت الحملة العسكرية، لكن ابنه إبراهيم باشا مرض وعاد إلى مصر ليواصل إسماعيل باشا المعركة إلى أن قتل، فحل محله صهر محمد علي باشا الدفتردار. وقد استولت قوات محمد علي باشا على مناطق واسعة من السودان ودخلت العاصمة السودانية في ٢١يوليو/ تموز ١٨٢١م.

كانت أهم فتوحات محمد علي باشا هي حملته إلى بلاد الشام وتوغله في الأراضي التركية بعد أن ضعفت الدولة العثمانية أمام القوى الأوربية الطامعة إضافة إلى بوادر النهضة العربية الفكرية والسياسية الرافضة للهيمنة التركية والظلم التركي، ولذلك كانت الظروف مواتيه للقيام بالحملة؛ لأن العرب مسلمين ومسيحيين كانوا يتطلعون لمن ينقذهم، بل إن بعض الأمراء العرب ومنهم الأمير بشير الشهابي في لبنان كانت تربطه علاقات ودية مع محمد علي باشا. ومن العوامل الأخرى التي دفعت محمد علي باشا لفتح الشام هو حماية مصر من الغزو الآتي من الشرق ومن الأتراك العثمانيين أنفسهم.

لمْ يكْشفْ محمد علي باشا عن دوافعه هذه في فتح الشام وإنما أعلن سبباً لا يثير السلطان العثماني ضده وهو قتال والي عكا عبدالله باشا الذي كان يطمح في جعل بلاد الشام تحت سلطته، وكان يدس الدسائس على محمد علي باشا لدى السلطان، وقد تحجج محمد علي باشا بأن عبدالله باشا رفض إعادة الذين هاجروا إلى عكا من مصر هرباً من مشاركتهم في حملة الإعمار التي قام بها محمد علي باشا في الأقاليم المصرية، كذلك رفض عبد الله باشا تسديد الديون المترتبة عليه لمحمد علي باشا وساند مهربي البضائع إلى مصر.

أبحر الأسطول المصري بقيادة إبراهيم باشا محملاً بالمدفعية وثلاثين ألف مقاتل من ذوي التدريب الجيد، واحتل في أول خطوة له يافا في نوفمبر / تشرين الثاني ١٨٣١م فاستقبله الناس بحفاوة وانْضَمَّ حاكم يافا لهم، وشارك بحارة يافا في أسطول إبراهيم باشا في فتح عكا بعد ذلك، وانضمت غزة إلى الفاتحين. وعندما تقدمت قوات محمد علي باشا بقيادة ابنه إبراهيم براً انضمّ إليها مقاتلون من فلسطين لتحاصر عكا براً وبحراً في ١٩ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٨٣١ م إلى أن سقطت في أواخر ١٨٣٢م، ونقل الوالي عبدالله باشا إلى القاهرة أسيراً ومن جانب آخر قاد الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان قوة من فرسانه شاركت في معركة عكا، كما كلف ابنه خليل بتجنيد اللبنانيين ومنع الحملة التركية من الدخول عن طريق منطقة طرابلس.

تمكنت قوات محمد علي بعد ذلك من فتح بيروت وطرابلس وبعلبك فأصبحت بلاد الشام الجنوبية والوسطى تحت سيطرة محمد علي باشا. ثم زحفت قواته إلى دمشق بعد أن انضمَّ إليها المتطوعون الفلسطينيون والسوريون، فاستولت في طريقها على طبرية وصفد والقنيطرة ثم دمشق التي رحبت بقوات محمد علي باشا، وبعد ذلك حمص وحماة وحلب والإسكندرية وأنطاكية والسويداء واللاذقية وبذلك أصبحت بلادُ الشام كلُّها جزءاً من الدوله العربية الجديدة بقيادة محمد علي باشا، التي أصبحت حدودها حتى أضنة شمالا إلى السودان جنوباً وحدود ليبيا والبحر المتوسط غرباً والعراق شرقاً.

نهاية محمد علي باشا ومشروعه النهضوي:

لم يكن محمد علي باشا يرغب بالصدام عسكرياً مع الدولة العثمانية ولذلك اقترح عقد اتفاق يتضمن ثلاث نقاط:

١- أن تعترف السلطة العثمانية بالإدارة المحلية الجديدة لمحمد علي باشا في حدود المناطق التي سيطر عليها وتركُ حكمِها له.

٢- أن يدفع محمد علي باشا جميع الأموال التي كانت تحصل عليها السلطة العثمانية من البلاد التي فتحها وسيطر عليها.

٣- اعتراف محمد علي باشا بسيادة الدولة العثمانية على دولته الجديدة.

تظاهرت السلطة العثمانية التركية بقبول التفاوض، لكنها أرادت كسب الوقت لحشد جيش في قونية لمهاجمة قوات محمد علي باشا. من جانب آخر أبدت الدول الأوربية الرغبة في الوقوف إلى جانب السلطنة العثمانية ضد محمد علي باشا؛ لأنها وجدت في مشروعه النهضوي الذي يوحِّد منطقة كبيرة واستراتيجية من الوطن العربي تهديداً لمصالحها وأهدافها في تقاسم أملاك الدولة العثمانية وبالذات الوطن العربي بعد أن أصبحت تطلق عليها (الرجل المريض).

أدرك محمد علي أن السلطنة العثمانية تراوغ وتطيل المفاوضات من أجل الهجوم على قواته، فأستأنف زحف جيشه وانتصر على جيشهم الذي كان محتشداً في قونية بعد معركة حاسمة استسلم فيها قائد الجيش الصدر الأعظم واستمر جيش محمد علي في زحفه وهدد بدخول العاصمة اسطنبول، فاستنجد السلطان العثماني بروسيا والدول الأوربية فتجمعت أساطيل روسيا وإنجلترا وفرنسا في الدردنيل مطلع عام ١٨٣٥م.

رافق هذا التجمع مباحثاتٌ بين السلطة العثمانية ومحمد علي وتَوَسَّطَ الفرنسيون فيها أدت بالنتيجة إلى إصدار السلطنة العثمانية بياناً بالاتفاق على أن تصبح (ولايات مصر ودمشق وحلب وعكا وبيروت وطرابلس) بعهدة والي مصر وأن تصبح ولاية الحبشة وجدة بعهدة نجله. ولكن هذا البيان لم يكن سوى مظهر لما هو خفيٌّ تحت الأرض؛ لأن السلطنة العثمانية كانت تعد العدة لنقل القتال إلى منطقة جزيرة الفرات ما بين النهرين، وقد قامت قواتها بمساعدة ضباط ألمان بالتحرك نحو ولاية حلب لكن قوات محمد علي تصدت لها وانتصرت عليها في يونيو/ حزيران ١٨٣٩م، وهرب قائد الجيش التركي فتقدمت قوات محمد علي وسيطرت على منطقة الجزيرة السفلى. ومن جانب آخر قام قائد الأسطول العثماني أحمد فوزي باشا بتسليم الأسطول إلى محمد علي في الإسكندرية.

قررت الدول الأوربية إنجلترا وروسيا والنمسا وفرنسا وروسيا اتخاذ خطوات عملية لوقف محمد علي باشا عند حده، وإنهاء دولته ومشروعه الحضاري العربي النهضوي، وبعد مداولات أوربية عقدت معاهدة لندن في ٥ يوليو / تموز ١٨٤٠م ونصت على تحديد حكم محمد علي باشا في مصر، وأن يكون حكمه وراثياً، وفي حالة رفضه ذلك تقوم الدول الأوربية بتقديم المساعدة للسلطان العثماني لتنفيذ المعاهدة بالقوة. وعندما رفض محمد علي باشا تنفيذ المعاهدة قطعت الدول الأوربية علاقاتها الدبلوماسية معه وهاجمت أساطيل الدول الأربعة بيروت في ٩ سبتمبر / أيلول ١٨٤٠م إضافة إلى حملة برية بقيادة بريطانية. وقد تعاونت القوتان البحرية والبرية في احتلال بيروت وحيفا وصور وصيدا، و قاومت قوات محمد علي باشا وحلفاؤه هذا الزحف الأوربي، لكن السلاح المدفعي المتطور وأساطيل أوربا أنهت هذه المقاومة بسهولة، واضطر محمد علي باشا أخيراً بقبول معاهدة ١٨٤٠م، وتخلى عن بلاد الشام ليصبح حكمه في مصر فقط، وأن يكون وراثياً تابعاً للدولة العثمانية اسمياً. وهكذا حطمت أوربا حلم نهضة عربية كان من الممكن أن تتفاعل مع النهضة الفكرية والسياسية التي عاشتها بلاد الشام والعراق في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لتحقيق الدولة العربية الموحدة المستقلة التي كان العرب يطمحون إلى تأسيسها.

توفى محمد علي باشا عام ١٨٤٩م وجاء من بعده خلفاؤه الذين حاولوا الاستمرار في عملية النهضة في مصر وفي مقدمتها فتح قناة السويس، إلا أن إسرافهم وتبذيرهم قاد مصر إلى طريق آخر، وهو إفلاسها واحتلالها من قبل بريطانيا عام ١٨٨٢م.

د- السودان والثورة المهدية.

يقع السودان في جنوب مصر، أي: في شمال شرقي أفريقيا، وفيه نهران هما اللذان يكونان نهر النيل الذي يجري من السودان إلى مصر، وهما النيل الأزرق والنيل الأبيض، إضافة إلى أنهر أخرى رافدة.

وعندما تقدمت الجيوش العربية والإسلامية إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص وحررتها اتجهت بعد ذلك إلى السودان لنشر الإسلام فيه، وقد ظهرت في السودان ممالك إسلامية متفرقة مثل سلطنة سنار في الشرق وسلطنة دارفور في الغرب، وقد

ظلت هاتان السلطنتان تتنازعان السيطرة على جميع السودان، من دون أن تتمكن إحداهما من التغلب على الأخرى، ناهيك من وجود زعامات سودانية أخرى متفرقة هنا وهناك وعندما زحف العثمانيون على الوطن العربي، احتلوا أجزاء من السودان وليس جميعها بعد احتلالهم لمصر عام (١٥١٧م)، ومنها بلاد النوبة، وإيالة الحبش وهذه الأخيرة ألحقوها بباشوية جدة، بعد سيطرتهم على البحر الأحمر، أي: إنهم لم يوحدوا السودان، كما كان لهم في أجزاء الوطن العربي الأخرى التي سيطروا عليها. وقد استمر وجود هذه الممالك الإسلامية المتناثرة في السودان إلى أنْ تقدم إليها محمد علي باشا الكبير من مصر، ووحّد السودان سياسياً تحت حكمه في أوائل العشرينيّات في القرن التاسع عشر.

كانت هناك عدة عوامل دفعت محمد علي الكبير إلى توحيد السودان مع مصر ومنها:

١- أراد محمد علي مطاردة المماليك الذين هربوا إلى السودان بعد مذبحة القلعة التي دبرها لهم عام (١٨١١م)، حيث أنهم حاولوا السيطرة على السودان بدعم أوربي لإقامة حكومة للمماليك فيه.

٢- خشية مصر من أن يتعاون المماليك مع الحبشة لإقامة الدولة المملوكية لتسيطر على النيل الأوسط، وتمتد إلى ساحل البحر الأحمر بالتعاون مع البريطانيين.

٣- النزاعات والقتال الداخلي بين القبائل السودانية؛ التي دفعت الزعماء السودانيين إلى الحصول على المساعدة من مصر؛ لإنقاذ البلاد من التطاحن والقتال خصوصاً بعد هجرة المماليك إلى البلاد، ومحاولتهم السيطرة عليها.

٤- محاولة المصريين الحصول على الذهب الذي اشتهر به السودان منذ القدم، ويدافع الباحثون المصريون عن هذا الاتهام بالقول إنهم كانوا يدفعون من خزينتهم لتلافي العجز الذي كانت تعاني منه الخزينة السودانية، وإنهم لم يستغلوا هذا المورد ولم يستفيدوا منه، وهو تهمة أوربية لتشويه سمعة مصر.

في عام (١٨٢٥م) سيطر محمد علي باشا على أجزاء من السودان، واستمرت عملية السيطرة علي بقية الأجزاء في عهد خلفائه حتى استكملت في عهد الخديوي إسماعيل، وقد أنشئت العاصمة الخرطوم في ظل الحكم المصري عام ١٨٣٠م.

واستقرت الأحوال الاقتصادية والسياسية في السودان، كما شجع محمد علي وخلفاؤه الباحثين الأوربيين والعلماء لاستكشاف منابع النيل، ولكن اعتماد حكام مصر، وخصوصاً في عهد الخديوي إسماعيل، على الأجانب في عملية الاستكشاف، وفي حكم أقاليم السودان كان له تأثيرهُ السلبي والسيِّئ على السودانيين مما هيأ الظروف لقيام ثورة محمد المهدي عام (١٨٨١م).

الثورة المهدية:

تنسب الثورة المهدية إلى محمد بن أحمد الذي لقّب نفسه بالمهدي، اعتماداً على الاعتقاد القائل بظهور المهدي المنتظر الذي يصلح الدنيا آخرَ الزمان.

عرف المهدي منذ نشأته بالتقوى والورع والعزلة، وكان معروفاً بتمسكه بالمبادئ الدينية بشكل صارم.

أسباب الثورة:

تعود أسباب الثورة المهدية إلى عوامل عديدة يأتي في مقدمتها:

١- الحكم الأجنبي المتسلط على السودان من قبل الأتراك العثمانيين والإدارة المصرية ومن بعدهم البريطانيون.

٢- التصرفات الخاطئة والاستفزازية للإداريين المصريين في زمن محمد علي وخلفائه وخصوصاً الخديوي إسماعيل.

٣- الفساد الاجتماعي والفوضى الدينية.

٤- العنف الذي رافق فتح محمد علي للسودان.

٥- الضرائب الفادحة التي فرضت على السودانيين وكانت تجبى بالقوة.

٦- محاولة الحكومة منع الرقيق.

٧- مساندة الحكومة لقبيلة الشيقية وطائفة الختمية.

٨- السياسة التي اتبعها الحاكم البريطاني غورْ دُون وخصوصاً تعيين الأجانب بشكل واسع في المواقع الحكومية المهمة.

٩- تنكيل الأجانب بالسودانيين، وتنفيذ القوانين بصرامة واستهانتهم بالقيم والأخلاق بدعوى نشر الحرية.

١٠ ـ تقويض الأسس الاقتصادية والبنى التحتية للبلاد مما عطل الحياة اليومية.

الدعوة المهدية وعملياتها العسكرية:

اتهم المهدي حكام السودان بالكفر والمروق عن الدين، وطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، ونادى بالجهاد لذلك لقي تجاوباً من السودانيين الذين كانوا يعانون من الظلم الاجتماعي والاضطهاد السياسي.

كان رؤوف باشا هو الحاكم العام للسودان، عندما ظهرت حركة المهدي، فطلب حضوره إلى الخرطوم، لكن المهدي أجابه بإعلان الجهاد ضد الكفار، واستطاع التغلب على القوة العسكرية التي أرسلها رؤوف باشا للقضاء عليه في جزيرة آبا التي كانت مقراً للمهدي، فازداد أنصاره ومؤيدوه. ثم انتقل المهدي بعد ذلك من آبا إلى كردفان لبعدها عن الخرطوم ولوعورة المسالك والطرق إليها، ثم تقدم إلى منطقة وعرة أخرى هي منطقة جبل قدير في جبال النوبة. وقد منحه موسم الأمطار الفرصة لتقوية صفوف قواته وتنظيمها، وعندما انتهى هذا الموسم أرسلت الحكومة المصرية قوة جديدة لقتاله لكنه انتصر عليها ودحرها. فاستبدلت الحكومة برؤوف باشا الحاكمَ عبدَ القادر حلمي في مطلع عام ١٨٨٢م لكنه لم يتمكن من تغيير الموقف لصالح الحكومة، بل على العكس فإن أحداث مصر في هذه المرحلة، واحتلال البريطانيين عسكريا لها وقيام ثورة أحمد عرابي، وما تبعها من تطورات قد شغل الحكومة المصرية عن السودان، وعرقل محاولاتها للقضاء على ثورة المهدي.

استغل المهدي هذه الفرصة فاحتل مدينة الأبيض عاصمة كردفان في ١٩ يناير / كانون الثاني، وهي أكبر مدن السودان وأغناها بعد الخرطوم، وتعتبر من المراكز التجارية الكبيرة، وأصبحت منذ هذا التاريخ مقراً للمهدي ومنطلقا له إلى الخرطوم. وعندما كانت ثورة عرابي على أشدها بعد أن قصف البريطانيون الإسكندرية واحتلوا مصر، حاول عرابي التعاون مع المهدي في السودان، وكانت لديه النية لإعلانه حاكماً على السودان، بينما أعلن المهدي لاحقاً انه كان يهدف إلى توحيد النيل تحت زعامة أحمد عرابي كمقدمه لتوحيد العالم العربي والإسلامي.

عندما كان المهدي يحقق انتصاره في كردفان، كانت بريطانيا قد احتلت مصر فجهزت حمله للقضاء عليه في نوفمبر (١٨٨٣م) بقيادة هكس باشا الذي اندحر أمام صمود قوات المهدي في معركة البركة جنوبَ شرقيَّ الأبيضِ.

وعلى الرغم من أن ثورة المهدي كانت مقتصرة على السودان إلا أنها أظهرت توجهاً عروبياً إسلاميا واضحاً، فقد كانت لأحمد عرابي علاقات بالمهدي لدرجة أنه أعلن بعد نفيه أنه كان ينوي تعيين المهدي حاكماً عاماً للسودان، كما أعلن المهدي نفسه أنه كان يهدف إلى توحيد وادي النيل تحت زعامة أحمد عرابي لتكون هذه الوحدة نواة ومقدمة لتوحيد العرب والمسلمين.

حاولت الحكومة البريطانية مفاوضة المهدي فكلفت غوردون بالذهاب إلى الخرطوم الذي ما إنْ وصلَ إليها حتى أرسل رسالة إلى المهدي، أعلن فيها رغبة الإنجليز في التنازل له عن كردفان، وإقامة صلات تجارية معه مقابل إطلاق سراح أسراهم، فأجابه المهدي طالباً منه أن يستسلم، وفي الوقت نفسه حرك قواته إلى الخرطوم فحاصرها. فهاجمته القوات البريطانية وكانت نتيجة المعارك استسلام أم درمان للمهدي في مطلع عام (١٨٨٥م)، ومن ثم تقدمه نحو الخرطوم فهزم القوات البريطانية ودخلها وقتل غوردون في قصره، عند ذلك انسحب البريطانيون من السودان وأصبحت الخرطوم عاصمة للمهدي عام ١٨٨٥م.

نهاية الثورة واحتلال بريطانيا للسودان:

في عام الانتصارات هذا (١٨٨٥م)، أصيب المهدي بمرض التيفوس وتوفي على إثره، فتولى الحكم من بعده حسب وصيته صديقه ومرافقه عبدالله المكنى بأبي بكر. فقام هذا الأخير بنقل العاصمة إلى أم درمان، وتمكن من تحقيق انتصارات على القوات البريطانية المتبقية في بعض مناطق السودان، وحاول التقدم نحو مصر عن طريق وادي حلفا للاستيلاء على أسوان لكنه فشل في مسعاه. وواجه عبد الله بعض المشاكل الداخلية مثل المجاعة التي انتشرت في السودان عام (١٨٨٩م) ومؤامرة من المقربين إليه للإطاحة به.

تصاعد النشاط الاستعماري الأوربي في المنطقة خلال هذا الفترة خصوصاً بعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م وجنوبي اليمن (عدن) عام (١٨٣٩م)، وتونس عام

١٨٨١م ومصر عام ١٨٨٢م، ولذلك حاول الإيطاليون احتلال مصوع استعداداً لغزو شرقي السودان، وتمكنوا من التغلب على قوات عبدالله عام (١٨٩٤م) واحتلوا كسلا، ولكن إمبراطور الحبشة هاجم الإيطاليين وهزمهم عام (١٨٩٦م) وأنقذ جماعة المهدي منهم.

ان ضعف قوات عبدالله خليفة المهدي قد شجع البريطانيين على تجهيز حملةٍ من مصر بقيادة القائد العام كتشنر حاكم مصر عام (١٨٩٦م)، وتمكنوا من التغلب على قوات المهدي في معركة أم درمان وقتل خليفة المهدي، وانتهت بذلك دولة الحركة المهدية باحتلال بريطانيا للسودان بشكل نهائي.

وفي عام (١٨٨٩م) تمّ توحيد مصر مع السودان باسم (إعادة الفتح) وقام الحكم الثنائي الإنجليزي ـ المصري بموجب اتفاقية عام (١٨٩٩م). وقد أدى هذا الشكل من الحكم إلى نزاع بين البريطانيين و المصريين؛ لأنّ المصريين أرادوا فرض سيطرتهم التامة على السودان، لذلك ظهرت فكرة وادي النيل التي طرحتها الأحزاب الوطنية في مصر بعد الحرب العالمية الأولى، ومنها حزب الوفد عام (١٩٣٦م).

٤- المغرب العربي:

أصبحت ليبيا وتونس والجزائر تحت السيطرة العثمانية غير المباشرة بعد احتلال العثمانيين للمشرق العربي. ولم يشهد المغرب العربي حالة عداء للدولة العثمانية ولا حركات تمرد أو انتفاضات ضدها؛ لأن ظروف المواجهة مع الهجمة الأوربية الصليبية على المغرب العربي قبل الاستكشافات الأوربية وخلالها، قد دفعت المجاهدين العرب المسلمين إلى الاستنجاد، والتحالف مع الدولة العثمانية، التي كانت أصلا قد احتلت الوطن العربي لأسباب كان واحداً منها: التوسع الأوربي في المغرب العربي، والبحر المتوسط، وتهديدهم طرق التجارة العثمانية.

وإذا ما تناولنا تاريخ المغرب العربي فإن ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، كانت تعيش وحدة في عهد دولة الموحدين حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وعندما انهارت دولة الموحدين، ظهرت ثلاث إمارات في هذه المنطقة تنافست فيما بينهما مما أدى إلى ضعفها، وهي:

ـ إمارة بني مرين في المغرب الأقصى.

ـ وإمارة بني حفص في تونس.

ـ وإمارة بني عبد الواد في الجزائر.

ومع ذلك فقد كان المجاهدون من المغرب العربي يتصدون للهجمات الأوربية، التي تهدف إلى السيطرة عليهم، وكانوا يطلقون على المجاهدين في البحر المتوسط اسم (القراصنة) بمعنى السراق وقطاع طريق البحر والفتنة؛ للإساءة إلى حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزو الأوروبي الصليبي.

أمّا عن النظام الإداري في المغرب العربي، فقد أصبحت أقطاره بعد السيطرة العثمانية ولايات تابعة اسمياً لها يرأسها الوالي ممثلا للسلطان شأنها شأن بقية الولايات العربية في المشرق، ويعاون الوالي أو الباشا ديوان استشاري، وموظف يدير الشؤون المالية يحمل لقب (باي) وقائد عسكري يحمل لقب (داي).

ومع مرور الزمن أصبحت السلطة الفعلية للبايات ثم للدايات الذين حكموا بشكل مستقل عن السلطة العثمانية.

ولابد من الإشارة إلى أن المغرب لم يخضع للعثمانيين، بل بقي مستقلاً وحكمه السعديون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر، وكانوا من أقوى المجاهدين الذين تصدوا للأوربيين، شأنهم شأن الأخوين باربا روسا في الجزائر، وأعقبهم حكم العلويين عام (١٦٦٦م) الذين استمروا في مقاومة الأوربيين الغزاة، واستردوا عدداً من المدن المغربية المهمة التي كان الإسبان والبرتغاليون قد سيطروا عليها.

إن هذه الهجمة الأوربية الاستعمارية قد أنهت السيطرة العثمانية على المغرب العربي مبكراً قياساً بالمشرق العربي، فقد احتلت إيطاليا ليبيا عام (١٩١١م) بينما لم تحتل القوى الأوربية الاستعمارية العراق وبلاد الشام إلّا في الحرب العالمية الأولى وبظروف مختلفة تماماً عن ظروف المغرب العربي.

أ- الجزائر:

حكم الجزائر بعد انهيار دولة الموحدين، بنو مرين ومن بعدهم بنو زيان، وخلال فترة حكمهم ومع أواخر الحكم العربي الإسلامي في الأندلس بدأ المغرب العربي عموما يتعرض لهجمات الإسبان والبرتغال، الذين استطاعوا بعد سقوط

غرناطة الاستيلاء على المرسى الكبير، ووهران في الجزائر، واحتلوا كذلك بجاية وعنابة، فقاوم الجزائريون هذا الاحتلال بقوة ووقفوا بوجه الغزاة المحتلين، كما أفرزت هذه المقاومة قيادِيَّيْنِ مشهود لهما بالشجاعة والجرأة في مقاومة الغزاة التوربين في الحوض الغربي من البحر المتوسط، وهما (بابا عروج) وأخوه (خير الدين) الملقب (باربا روسا) أي: صاحب اللحية الحمراء. فمنذ عام (١٥١٠م) اشتهر اسم بابا عروج الجزائري كمدافع عن العرب المسلمين في المغرب العربي كلّه مستخدماً سفنه السريعة في مطاردة سفن الاروبين المستعمرين وانْضَمَّ إليه متطوعون للجهاد معه وبعد ثماني سنوات من جهاده استشهد بابا عروج في إحدى المعارك واستلم منه القيادة أخوه خير الدين باربا روسا الذي واصل الجهاد وأنشأ أسطولاً نجح في مقاومة الإسبان في أواخر حكم بني زيان.

وجد خير الدين بعد وفاة أخيه بابا عروج أن الوسيلة الوحيدة لتقوية مقاومته وجهاده هي الاتصال بالدولة الفتية العثمانية التي تمكنت من احتلال بلاد الشام ومصر، وانتصرت على الفرس الصفويين في إيران، فطلب منها مساعدته في صد الغزوات الأوروبية الصليبية على بلاد المغرب العربي فاستجاب له السلطان سليم الأول وزوّده بألفي جندي من الإنكشارية، وساعده في تجميع المتطوعين للدفاع عن المغرب العربي، ومنحه لقب(بيكلربك أفريقيا) أي: رئيس رؤساء المغرب، إضافه إلى لقب قبودان باشا، أو باي لارباي أي: قبطان البحر، أو أمير البحر. وفي عهد السلطان سليمان القانوني استدعِي خير الدين إلى اسطنبول، وتم تعيينه قائد عاماً للأسطول العثماني في البحر المتوسط، ومنذ عام (١٥٤٦م) أصبحت الجزائر ولاية عثمانية ممتازة.

أنشأ خير الدين مدينة الجزائر عام (١٥٢٩م) واتخذها عاصمة لإمارته المجاهدة، وقام بالرد على غزو الإسبان لتونس عام (١٥٣٥م) بهجوم مباغت على القوات الإسبانية في جزر البليارد، وأسر منهم ستة آلاف رجل عاد بهم إلى الجزائر، كما قام أسطوله بقيادة مساعده الحاج على بإنهاء القواعد الإسبانية في تونس عام (١٥٦٩م) مما دفع البابا إلى إصدار نداء لتكوين حلف مسيحي اصطدمت قواته في معركة حربية مع أسطول الحاج علي قرب سواحل جزيرة مالطة عام (١٥٧١م)، تمكن الأوربيون من الانتصار فيها على أسطول الحاج علي، ولم

يتمكن من تحرير القواعد التي احتلتها إسبانيا والبرتغال على سواحل المغرب الأقصى ووهران في الجزائر التي بقيت بأيدي الإسبان حتى نهاية القرن الثامن عشر. من جانب آ خر قام قادة المجاهدين العرب في المغرب الأقصى بمعاونة خير الدين في جهاده ضد القوى الأوربية المسيحية المعادية مثل (يحي ريس).

قسم الباحثون في التاريخ حكمَ الدولة العثمانية للجزائر إلى أربعة عهود وعلى النحو الآتي:

١- عهد البالارباي (١٥٤٦- ١٥٨٧م):

ويعتبر هذا العهد من أفضل مراحل الحكم التركي العثماني لما تميز به من عمران وإدارة سليمة للولاية في ضوء حكم سلاطين أقوياء في اسطنبول، وقد ساعد على هذا الازدهار العربُ المسلمون الذين هاجروا من الأندلس فنقلوا معهم عطاءات من حضارة الأندلس ساعدت على ازدهار الصناعة والتجارة والزراعة وغيرها.

أما عن طبيعة الحكم فقد هيمنت على الولاية جماعات الجهاد ضد الغزاة الأوروبيين وهي خليط من أهل البلاد والجنود الأتراك القادمين من اسطنبول. وفي هذه المرحلة توحدت الجزائر بكاملها كولاية في مواجهة الخطر الخارجي.

٢- عهد الولاة (١٥٨٧- ١٦٥٩م):

وهو العهد الذي سيطر فيه الولاة الأتراك الذين تعينهم السلطنة العثمانية لمدة ثلاث سنوات ويلقب (الباشا) وقد ازدهرت في عهدهم القوة البحرية الجزائرية على الرغم من وجود منازعات بين الجزائريين والجنود الأتراك الذين استأثروا من دون أهل البلاد بمزايا خاصة.

٣- حكم الأغوات (١٦٥٩- ١٦٧١م):

وفية استأثر الضباط والجنود الأتراك (البولداش) بالسلطة تحت رئاسة آغا ينتخبونه فيما بينهم يحكم لمدة شهرين بالتناوب.

٤- عهد الدايات: (١٦٧١- ١٨٣٠ م):

انتهت في هذا العهد سلطة البولداش وعادت سلطة المجاهدين فوضعوا نظاماً يتم بموجبه انتخاب (داي) يحكم البلاد مدى الحياة، وفي هذا العهد نجح

الجزائريون في تحرير المرسى الكبير، ووهران من الاحتلال الإسباني عام ١٧٩٢م بعد معارك عديدة دامت ردحاً من الزمن.

كان النظام الإداري للولاية في عهد الدايات مكوناً من الديوان الخاص، وهو مجلس الدولة والديوان العام، وهو المجلس العمومي، وكان الديوان الخاص ينتخب الداي على أن يصادق عليه السلطان العثماني. ووضعَ قيوداً تَحُدُّ من سلطات الداي وتجعل له شركاء في حكم الولاية، أما موارد الدولة فيجمعها الباي من التجارة الخارجية وجزية اليهود والضرائب وما شابه. وكان التصرف في هذه الموارد يخضع لرقابه مالية، ويكون الداي مخولاً بعقد الاتفاقات والمعاهدات مع الدولة. وفي حالة الاعتداء الخارجي يشترك جيش الداي، وجيش اسطنبول في الدفاع تحت راية السلطان العثماني. ولاشك في أن الموارد المالية الكثيرة، وخصوصاً تلك التي تجنيها الموانى الجزائرية قد جعلت الجزائر غنية. وقد استدانت منها فرنسا أموالاً طائلة عجزت عن تسديدها وكانت أحد أسباب الغزو الفرنسي واحتلالهم للجزائر عام ١٨٣٠م.

ب- ولاية تونس:

حكم الحفصيون تونس للمدة (١٢٢٨ ـ ١٥٧٤م) بعد انهيار دولة الموحدين وكانوا فرعاً منها وعاشت تونس في زمنهم فترة استقرار وازدهار إلى أن استولى العثمانيون عليها عام (١٥٧٤م) عندما استنجد الحسن الحفصي بهم لطرد الإسبان، فطردوا الإسبان، ثم انهوا حكم الحفصيين حينما قام القائد العثماني التركي سنان باشا بالاستيلاء على حصون تونس، وأسر محمد الحفصي، وأعلن تونس ولاية عثمانية يحكمها والٍ تركيٌّ يساعده عسكرياً الداي ومالياً الباي، مع ديوان استشاري يضم الباي والداي والموظفين الكبار.

وقد استأثر الدايات بالسلطة، وأضعفوا الوالي للفترة (١٥٩٠ ـ ١٦٤٠م) حينما تغلب البايات عليهم، واستلموا السلطة في الولاية وحكمت منهم أسرتان بالوراثة هما الأسرة المرادية للفترة (١٦٣٧ ـ ١٧٠٢م)، والأسرة الحسينية للفترة (١٧٠٥ ـ ١٩٥٧م) حتى قيام الجمهورية التونسية، ولم تكن هذه التغيرات تكتسب شرعيتها إلا بعد موافقة السلطان العثماني.

كان الجهاد في تونس ضعيفاً ضد الغزاة الأوربيين؛ لذلك وقع عبء الدفاع عن تونس على الليبيين والجزائريين، ففي الفترة (١٥٥٣ ـ ١٥٥٨م) قام والي طرابلس الغرب في المشاركة بالدفاع عن تونس ضد الإسبان وفرسان القديس يوحنا فأنقذ مدينه قفصة عام (١٥٥٦م) وبعدها بعامين حرر القيروان. أما الجزائريون فقد تحملوا مسؤولية طرد الإسبان من تونس. ولذلك يأخذ الباحثون على التونسيين ضعف حركة الجهاد لديهم، لكنهم من جانب آخر وجدوا في بعض البايات التونسيين روحاً عربية عندما عملوا على تغيير لغة المكاتبات الرسمية مع الدولة العثمانية إلى العربية، كما تزامنت فترة حكم أحمد باشا (١٨٣٩ ـ ١٨٥٥م) مع محاولة الدولة العثمانية إصلاح أوضاعها الإداريه والسياسية في عهد السلطان محمود الثاني الذي طلب من الباي تطبيق (التنظيمات) في تونس. فعمل أحمد باشا على إنشاء مدرسة حربية وجيشٍ كبير، ومصانع للذخيرة ودارٍ لصناعة السفن، وبنى إسطولاً تونسياً وشجع العلم، وأكرم العلماء وألغى الرق. ولكن هذه الإصلاحات كانت لها جوانبها السلبية؛ لأنها أرهقت تونس بالديوان وسمحت للفرنسيين بدخول البلاد للإشراف على الجوانب العسكرية من خلال ضباطهم، وعندما حاول البايات إصلاح الأوضاع المالية لم يفلحوا، بل إن الديون جعلت فرنسا تتدخل في أمور البلاد وفرضت سلطتها المالية عليها مما أدى بالنتيجة إلى احتلال الفرنسيين لتونس عسكرياً عام ١٨٨٠م.

ج- ولاية طرابلس الغرب (ليبيا):

شهد القرن السادس عشر صراعاً أوربياً عثمانياً على البحر المتوسط، حينما اتجه الأوروبيون للسيطرة على سواحله العربية في المغرب العربي، وبقدر تعلق الأمر بليبيا فقد استولى الإسبان على مدينتها الرئيسَة طرابلس الغرب عام (١٥١٠م) ولمدة ربع قرن من الزمن تنازلوا بعدها عنها إلى فرسان القديس يوحنا. وتكمن أهمية مدينة طرابلس الغرب وما جاورها في كونها تتصل بمصر وتقع على طريق الحج من المغرب الأقصى إلى مكة المكرمة والطرق التجارية بين أفريقيا وأوربا.

استمر تسلط فرسان القديس يوحنا على طرابلس إلى أن احتلها العثمانيون عام (١٥٥١م) بعد أن استنجد بهم بعض من أهل ليبيا، فأصبحت ولاية عثمانية كغيرها

من الولايات العربية. ويمكن تقسيم فترة الحكم العثماني في ولاية ليبيا إلى مرحلتين الأولى منذ الاحتلال وحتى سنة ١٧١١م، أي: حوالي مائة وستون عاماً. وقد أطلق عليها الباحثون اسم العهد العثماني الأول في ليبيا، والذي انتهى ليبدأ حكم الأسرة القرمانلية الذي امتد مائةً وأربعةً وعشرين عاماً (١٧١١-١٨٣٥م) ليعود بعده الحكم العثماني الثاني إلى ولاية طرابلس والذي انتهى عام (١٩١١م) باحتلال الإيطاليين لليبيا.

العهد العثماني الأول:

عانت ليبيا في العهد العثماني الأول (١٥٥١-١٧١١م) من الفوضى وسوء إدارة الحكم وقيام الانتفاضات العربية إضافة إلى الفتن بين جنود الإنكشارية الوافدين إلى البلاد والذين أصبحوا سلطة قوية تعزل الولاة وتسلب وتنهب الأهالي وتنصب ولاة غير أَكْفاء لا يهمهم سوى مصالحهم الشخصية ومكاسبهم المالية. كما أن السلطنة العثمانية كانت غير مهتمة بولاية طرابلس خصوصاً وأنها لم تكن تملك إمكانات مالية تقدمها للسلطنة، كذلك فإن سعة رقعة البلاد وقلة عدد السكان وانعدام المواصلات جعلت سلطة الوالي العثماني تقتصر على المدن الساحلية، بينما كانت المناطق الداخلية غير خاضعة عملياً له، وكثيراً ما كانت تثور ضد الوالي التركي الذي يصعب عليه إخضاعها.

كان لهذه الفوضى مع بوادر ضعف الدولة العثمانية في أوائل القرن الثاني عشر أثرها في صعود قوة محلية إلى ولاية طرابلس أمسكت بزمام الأمور في ليبيا وجعلت من حكم العثمانيين الأتراك في اسطنبول مجرد سلطة اسمية، وهي الأسرة القرمانلية التي حكمت البلاد للفترة (١٧١١-١٨٣٥م)، ومؤسسها أحمد بن يوسف بن محمد بن مصطفى القرمانلي، وكان والده عاملاً على ساحل المنشية ومن بعده حل أحمد بأمر من والي طرابلس الغرب محل أبيه، وهو من أصل تركي جاء جدهم إلى ليبيا مع القائد التركي درغوت باشا عام (١٥٥٣م). وتزوج من امرأة عربية ليبية. وتدرج أفراد الأسرة بمناصب مختلفة في الولاية، وكان أحمد القرمانلي طموحاً ذكياً واسع الحيلة، فنأى بنفسه عن الدخول في الصراع القائم بين الوالي، وجند الإنكشارية والموظفين الكبار، ففاز برضا الجميع بما فيهم أعيان طرابلس من

أهل ليبيا الذين سعوا للتخلص من الفوضى، فبايعه الجميع والياً وكان عمرُه خمسةً وعشرين عاماً.

الوالي أحمد القرمانلي وأسرته:

واجهت أحمد القرمانلي صعوبات وعقبات عديدة لترسيخ وتثبيت ولايته، وفي مقدمتها القوى المتطلعة للسلطة، وهم الضباط، والإنكشارية، والفتن والثورات الداخلية، فقام بتدبير مذبحة للضباط بأسلوب محمد علي باشا حين دعا حوالي ٣٠٠ ضابط منهم إلى حفل في منزله الريفي وذبحهم بعد انتهائه، من جانب آخر تصدى للفتن والتمرد بقسوة حتى دانت له البلاد، كما اعتمد أسلوب الملاطفة والتقرب إلى أعيان طرابلس فكسَب ودهم، وكانوا أحد عوامل موافقة السلطان العثماني على تثبيته بولاية طرابلس، ذلك بأن علاقته بالسلطان كانت متوترة؛ لأن الأخير غضب منه؛ لأنه قتل الوالي خليل باشا الذي عينه على ولاية ليبيا، فأصبح أحمد القرمانلي وكأنه مفروض على السلطان، فأرسل إلى اسطنبول وفداً ليشرح موضوع مقتل خليل باشا والمطالبة بتثبيت أحمد القرمانلي والياً على طرابلس الغرب، وحمل الوفد معه هدايا ثمينة. ولكي يكسب أحمد القرمانلي ود السلطان، فقد أقام احتفالات كبيرة بانتصار السلطان على بطرس الأكبر قيصر روسيا في إحدى المعارك الدائرة بينهما، وعندما أرسل السلطان أحمد الثالث مبعوثاً خاصاً للتحقيق في مقتل الوالي المعيَّنِ خليل باشا، استقبل أحمد القرمانلي المبعوث بالاعتناء والحفاوة والتكريم حتى إنّ المبعوثَ أنهى مهمته دون أن يقابل أحداً، وعاد محملاً بالهدايا له وللسلطان، واستمر أحمد بإرسال الهدايا للسلطان إلى أن أصدر أمراً رسمياً بتثبيته والياً.

اهتم أحمد القرمانلي بالأسطول البحري، فأعاد شهرة الأسطول العثماني أيام سنان باشا، وأعلن الجهاد ضد السفن الأوربية عدا تلك التي تدفع الجزية السنوية وكانت إنجلترا وهولندا من أوائل الدول التي وقعت معه على معاهدة؛ لدفع الجزية لقاء عدم التعرض لسفنهم في البحر المتوسط، فتوفرت له أموالٌ طائلة استثمرها في إعمار البلاد وفتح طرق التجارة عبر الصحراء مع أفريقيا، مما زاد في دخل الولاية من تجارة القوافل، فانتعشت الأحوال المعيشية لأهل ليبيا.

استمرت ولاية أحمد القرمانلي (٣٤) عاما (١٧١١-١٧٤٥م) خلال تثبيت حكمه وحكم أسرته من بعده ويذكر المؤرخون أن فترة حكم أحمد القرماني كانت من أفضل العهود التي عاشتها ولاية ليبيا أيام العثمانيين، فإضافة إلى ما ذكرناه أعلاه عمل أحمد القرمانلي على وضع أسس وقوانين للولاية تحقق العدل والإنصاف، وأنشأ القلاع والحصون وأنشأ مشروع المياه العذبة لمدينة طرابلس وميناءها.

استلم ابنُ أحمدَ، محمدٌ القرمانلي، ولاية أبيه بعد موته وسار على نهجه في الجهاد ضد المستعمرين مما دفع الأوربيين إلى مهابته وعقد اتفاقيات معه مثل النمسا والدنمارك، وكانت هذه الاتفاقيات أو المعاهدات تتم من دون استئذان من السلطة العثمانية في اسطنبول، ومع أن الاستقرار الذي شهده عهد أبيه قد امتد إلى ولايته إلا أن فتناً وتمردات قد نشأت في عهده لخلعِهِ مما أضعف قواته بعد أن فقد خيرة ضباطه وجنوده المخلصين على الرغم من قمعه لهذه التمردات فإنه اضْطُرَّ إلى تجنيد بضع مئات من الجند الإنكشارية جلبهم من مدينة ازمير التركية، فكان لهذا الأمر أثره فيما بعد في أضعاف حكم الأسرة القرمانلية فيما بعد.

وتوفى محمد القرمانلي عام (١٧٥٤م) وله من العمر ٤٥ سنة بعد حكم دام تسع سنوات، ودفن إلى جانب والده بمقبرة جامع أحمد باشا، والذي كان والده قد شيده على أنقاض مسجد عمرو بن العاص، وألحق به مدرسة أوقف عليها الأموال، والتي ما تزال قائمة إلى اليوم باسم كلية أحمد باشا.

سادت مظاهر الضعف والانحطاط في ولاية ليبيا عندما استلم الولاية على بن محمد القرمانلي، فقد التف حوله قادة الإنكشارية واستغلوا حداثة ولايته ليمسكوا بزمام السلطة الفعلية للبلاد، وحولوا الجهاد ضد الأوربيين إلى سلب ونهب ولم يهتموا بالمعاهدات والاتفاقيات المبرمة بين ليبيا وبين الأوروبيين، وعجزت الحكومة عن دفع مرتبات الجند، وتصاعدت الفتن والتمردات بسبب أساليب القمع والتعسف التي أتبعها القادة الإنكشاريون في جمع الأموال من القبائل العربية، كما تدهور الجيش وهرب الجنود، وأصبح النهب والسلب في الأسواق حالة عادية، وهكذا استسلم علي القرمانلي للإنكشارية وعم الخراب والدمار طرابلس التي تهدمت أسوارها وانتشر الطاعون والمجاعة فيها عام (١٧٦٧م) وهجرها أهلها إلى تونس ومصر.

التجأ أهل طرابلس الغرب إلى اسطنبول لإنقاذهم من محنتهم، فانتهز الفرصة أحد المغامرين واسمه (علي برغل) وأقنع السلطان سليم الثالث بأنه قادر على تخليص السلطنة من حكم القرمانلي مقابل إصدار أمر له بالولاية على طرابلس الغرب، فنزل مع عدد من أتباعه في طرابلس يوم ٢٩ يوليو / تموز عام (١٧٩٣م) وقرأ أمر السلطان العثماني بتعيينه والياً، فهرب على القرمانلي وأسرته إلى تونس.

أضطر الناس إلى قبول علي برغل والياً لأنهم لا يريدون الخروج عن طاعة السلطان لكن برغل كان قاسياً متغطرساً طماعاً، أباح المدينة لجنده فنهبوا وسلبوا وهتكوا أعراض الناس، وقام بسبي حريم متولي المدينة وفرض على الناس ضرائب ثقيلة. ومن جانب آخر ساءت علاقته بالدولة الأوروبية وتكبر عليهم ووصل به الأمر إلى الاصطدام بوالي تونس، مما دفع هذا الأخير إلى مساعدة القرمانليين في العودة إلى حكم طرابلس، وأجبر برغل على الهرب بعد حكم دام سنة وخمسة أشهر، وقام برغل بجمع الأموال والذخائر وذبح الرهائن والأسرى وأبحر إلى مصر ليستقر فيها.

كان لعلي القرمانلي ثلاثة أبناء تصارعوا فيما بينهم بعد تنازله لابنه الأكبر وقتل بعضهم بعضاً، إلى أن استقرت الولاية ليوسف القرمانلي أصغر أبنائه وأكثرهم طموحاً ورغبة في الحكم وذلك عام (١٧٩٦م)، ووافق السلطان على طلب أهل طرابلس بإصدار أمر بولاية يوسف عليها.

امتاز يوسف بصرامة ممزوجة بالعدل والكياسة، وكانت أمامه ثلاث قوى عليه التعامل معها، وهم الإنكشارية الذين استخدمهم في التخلص من الثورات الداخلية والتصدي للسفن الأوروبية، ولكنه لم يسمح لهم بأن يسيطروا عليه من خلال اعتماده على قبائل عربية وقفت إلى جانبه، ومنحته القوة أمام أي محاولة تسلط إنكشاري، أما القبائل العربية بشكل عام وهي القوة الثانية فقد شعرت في البداية بأن عهداً جديداً يختلف عن سابقه قد بدأ، ولكن هذه القبائل لم تجد فيما بعد تحسناً في أوضاعها فبدأت حركات العصيان والتمرد التي أضعفت حكم القرمانليين خصوصاً وأن بعضهم من الطامعين في الولاية كانوا يحرضون القبائل على التمرد للوصول إلى السلطة. ولما كانت خزينة الولاية خاوية فقد أصبح من الصعب إخضاع هذه القبائل فلجأ الوالي يوسف إلى مهادنتها مما زاد في ضعف سلطة الولاية

المركزية. وتأتي القوى الخارجية كقوة ثالثة أتعبت الوالي يوسف في التعامل معها، ففي عهده غزا نابليون مصر عام (١٧٩٨م) فطلب السلطان العثماني من يوسف تجهيز قوات للمساعدة في تحرير مصر من الفرنسيين بالهجوم عليها من الغرب ليتزامن مع هجوم من الشرق، مما أحرج يوسف لعلاقته الجيدة بالفرنسيين وتظاهر بالتهيؤ لمساندة السلطة العثمانية، وتنفس الصعداء عندما انسحب نابليون من مصر لأنه قد تخلص من ضغط السلطة العثمانية ومن ضغط الإنكليز الذين كانوا غير مرتاحين من علاقته مع فرنسا، وتقديمه التسهيلات في موانئ ليبيا لها بعد تحطيم الأسطول الفرنسي..

وفي عهد يوسف القرمانلي احتلت فرنسا الجزائر عام (١٨٣٠م) فخرجت عن سلطة الدولة العثمانية إلى الأبد، وأبدى الشعب الليبي استياءه من هذا الغزو، وأمام سلطة يوسف الضعيفة فرضت فرنسا شروطاً قاسية على ليبيا قبل بها يوسف لمنع أسطوله من مهاجمة الأوروبيين، وعدم تقويته ودفع تعويضات مالية لفرنسا، وعدم فرض الجزية على الأساطيل الأوروبية وأن يكون لفرنسا حقوقُ الدولةِ الأفضلِ رعاية من غيرها في ليبيا.

وخلال فترة حكم يوسف القرمانلي ظهر على مسرح الأحداث في مصر محمد علي باشا صاحب المشروع النهضوي العربي والذي اتبع اسلوباً شبيهاً بأسلوب أحمد القرمانلي مؤسس الأسرة القرمانلية في ليبيا. وفي الوقت الذي كان محمد علي باشا متجهاً إلى فتح بلاد الشام تنازل يوسف القرمانلي عن الولاية إلى ابنه على القرمانلي الثاني عام (١٨٣٢م)، وهناك إشارات إلى أن محمد علي باشا كان يرغب في ضم ليبيا إلى دولته العربية الجديدة لتخليصها من حكمِ القرمانليين المنهار، لكن ذلك لم يقع.

شاخت دولة القرمانليين مع شيخوخة يوسف، فبدأ ببيع قطع من أسطوله البحري وحول نحاس مدافعها إلى نقود وأرخى عنان التصرف بالأموال لأبنائه وأصهاره وقسم الولاية فيما بينهم، فساءت سيرتهم وعظم ظلمهم، واضطر يوسف إلى الاقتراض من الأجانب فأدى ذلك إلى زيادة فرض الضرائب، فتخلى عنه الكثير من أنصاره وبدأ الدس لدى السلطان العثماني ضده حتى من قبل القنصلين الفرنسي والإنكليزي، وكانت النتيجة أن تنازل عن حكم الولاية إلى ولده علي وجعل ابنه إبراهيم نائباً له.

ورث علي الثاني القرمانلي ولاية مضطربة مفلسة، ولم تنفع جهوده لإصلاح الأوضاع، فتدخلت السلطنة العثمانية لعزل علي وإنهاء حكم الأسرة. وفي ٢٦مايو / أيار عام (١٨٣٥م) وصل أسطول عثماني كبير على متنه الوالي العثماني الجديد نجيب باشا الذي قرر السلطان إرساله إلى طرابلس الغرب، لإنهاء حكم الأسرة القرمانلية وإعادة الولاية إلى الحكم العثماني المباشر، وعندما رسا الأسطول في ميناء طرابلس استُدعِيَ الوالي علي الثاني القرمانلي إلى سفينة الميناء، وأبلغه نجيب باشا بأمر السلطان العثماني بعزله والأمر بذهابه إلى أسطنبول مع أسرته ومن يريد أن يصطحبه معه، وتركه على السفينة ونزل إلى طرابلس وقريء على الناس نص تعيين نجيب باشا والياً جديداً على طرابلس الغرب، ليعود من جديد الحكم العثماني المباشر عليها.

العهد العثماني الثاني ومقاومته:

استمر الحكم العثماني المباشر لليبيا ٧٧ عاما منذ عام (١٨٣٥م) بانتهاء حكم الأسرة القرمانلية حتى عام (١٩١١م) عندما احتل ليبيا الإيطاليون. وقد توالى على حكم الولاية ٣٣ والياً تركياً عثمانيا كان همهم الوحيد جمع الأموال لمعرفتهم أن مدتهم في الولاية قصيرة، فتزايد الفساد الإداري وانتشر، وأهملت النواحي الصحية والتعليمية والعمرانية وتدهور الاقتصاد، فتصاعد سخط الليبيين وتزايدت الثورات والانتفاضات، ولكن التنافس بين قادتها لم يسمح بإقامة حكومة محلية لتخليصهم من الحكم التركي العثماني البغيض الذي بدأ يتدهور ويضعف أمام القوى الأوروبية الاستعمارية، وتدخلها في شؤون الدولة العثمانية وفرض الشروط عليها.

أما عن مشاعر الليبيين فإنها كانت عروبية أكثر منها عثمانية فقد قامت ثورات قومية عدة عام (١٨٨١م) احتجاجاً على احتلال الفرنسيين لتونس، واحتلال الإنكليز لمصر عام (١٨٨٢م)، ويذكر بعض الباحثين أن الرحالةَ الأوروبيين ذكروا أن الثائر غومة المحمودي في يَفْرِنَ بالجبل الغربي من ليبيا كان يعتبر أحد الناطقين باسم القومية العربية المقاومين للاحتلال التركي العثماني، وعندما قامت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام (١٨٥٣م) وجد بعض الليبيين الفرصة لإعلان استقلال بلادهم عن السلطنة العثمانية وتجهزوا بالسلاح، ولكنهم فشلوا في تحقيق

هدفهم لعدم اتحاد كلمتهم وهكذا تدهورت الأحوال في ليبيا لتمهد للغزو الإيطالي عام (١٩١١م) الذي أنهى الوجود العثماني فيها.

د- المغرب الأقصى (مراكش):

لم يخضع المغرب الأقصى للدولة العثمانية مطلقاً وبقي مستقلاً رافضاً لأي تدخل عثماني تركي. وكان شأنه شأن الجزائر وتونس جزءاً من دولة الموحدين، وبعد انهيارها حكمه بنو مرين عام (١٢٦٦م) الذين أقاموا دولة عنيت بالعلم والأدب والشعر، وازدهر في عهدهم جامع القرويين، وبلغت عاصمتُهم مدينةُ فاس شأناً كبيراً في التقدم والرقي، وحَكَمَ مِنْ بعدهم بنو وطاس الذين لم يستطيعوا الدفاع عن المغرب مما مكن البرتغاليين والإسبانَ مِنَ السيطرة على كثير من موانئه، إلا أن القرن السادس عشر شهد ظهور الدولة السعدية في المغرب الأقصى، التي استرجعت هذه الموانئ حتى أنه لم يبق بيد البرتغاليين سوى طنجة، وسبته، ومزغان. وكانت معركة وادي المخازن في أغسطس آب عام (١٥٧٨م) من أشهر المعارك التي انتصر فيها السعديون على البرتغال وقُتل فيها السلطان عبد الملك السعدي فخلفه أخوه أحمدُ السعدي الذي لقب بالمنصور، وواصل سياسة الجهاد ضد الغزاة البرتغاليين. وامتدت الدولة السعدية في عهده إلى حوض نهر السنغال وحتى نهر النيجر، وقام بعقد اتفاقات مع القوى الأوروبية المعادية لإسبانيا مثل إنكلترا وهولندا.

وقد عرف عهد أحمد المنصور السعدي بالعهد الذهبي، وظهرت لديه اتجاهات ذات طابع عربي اسلامي لتخليص العرب من الأتراك العثمانيين، لكن السعديين ضعفوا بعد وفاته بسبب النزاع بين أبناء المنصور الثلاثة على الحكم، فانقسمت الدولة إلى حكومتين واحدة في فاس وأخرى في مراكش، وظهرت قوى أخرى هنا وهناك، ومنها جمهورية سلا، وساعدت هجرة مسلمي الأندلس إليها في بناء مدينة جديدة مقابلها، أصبحت فيما بعد نواة لمدينة الرباط عاصمة المملكة المغربية الحالية.

إن هذه الانقسامات قد أدت إلى زوال الدولة السعدية وانتقال السلطة إلى العلويين عام (١٦٦٠م) والتي ما زالت تحكم إلى يومنا هذا، وهم أسرة ارتحلت من الحجاز إلى المغرب في القرن السابع الهجري ويعودون في نسبهم إلى الحسن

بن علي، ولذلك يعتبرون من الأشراف السادة الحسنيين، ويعتبر الشريف محمد مؤسس الدولة العلوية الذي أعاد للمغرب وحدته أما أخوه وخليفتُه مولاي إسماعيلُ فيعتبر باني نهضة المغرب ويصفه البعض بأنه من أعظم السلاطين، فقد امتد حكمه لأكثر من نصف قرن (١٦٧٢-١٧٢٧م) قام خلاله ببناء جيش نظامي قوي ونجح في تحرير مدينتي العرائش وأصيلة من البرتغاليين وتخليص طنجة من الإنكليز، وأصبحت له علاقات طيبة مع فرنسا، وكان يعامل الدولة العثمانية بحزم، فعرف بالجهاد ضد الاستعمار الأوروبي والقوة في حكم البلاد.

استمر حكم العلويين وتعاقبُ سلاطينهم على المغرب، وامتاز عهد محمد بن عبدالله (١٧٥٧-١٧٩٣م) بالاستقرار والعلاقات الجيدة مع أوروبا و العثمانيين والولايات المتحدة الأمريكية الناشئة، وكان أول الدول التي اعترفت بهذه الأخيرة، واستطاع استرداد بعض الموانئ من البرتغال. وعندما قامت الثورة الفرنسية وظهر نابليون كان المغرب يحكم من قبل مولاي محمد (١٧٩٤-١٨٢٤م) الذي اتصفت سياسته بالحذر وتجنب الصدام مع الأوروبيين لمعرفته بأحلام نابليون التوسعية. وفي زمن خليفته مولاي عبد الرحمن، احتلت فرنسا الجزائر عام (١٨٣٠م)، وقد حاول أن يمد العون إلى عبد القادر الجزائري في مقاومته للفرنسيين لكن التهديدات الفرنسية منعته من ذلك، وفي الواقع فإن احتلال الجزائر كانت البداية للتدخل الفرنسي في المغرب الأقصى بشتى الوسائل، فالأطماع الأوروبية عموماً كانت قد رسمت لها خططاً لاحتلال المغرب العربي خاصة، والوطن العربي عامة.

ومع أن مؤتمر مدريد الذي عقد عام (١٨٨٠م) قد نصت مقرراته على المحافظة على استقلال المغرب الأقصى وتركه مفتوحاً للتجارة الحرة أمام جميع الدول إلا أن الأطماع الأوروبية واحتلال تونس عام (١٨٨١م)، ووصول سلاطين ضعاف إلى حكم المغرب واقتراضهم الأموال من الدول الأوروبية ـ وفي مقدمتهم فرنسا التي شجعتهم على ذلك ـ قد جعل من هذا القرار حبراً على ورق، وكانت النتيجة أن احتلت فرنسا وإسبانيا المغرب الأقصى، وأعلنت الحماية عليه عام (١٩١٢م) مع استمرار الأسرة العلوية في الحكم، أيْ بعد احتلال الإيطاليين لليبيا بسنة واحدة. وبذلك تقاسمت الدول الأوروبية الجناح الغربي مِنَ الوطن العربي، حيث أصبحت الجزائر وتونس تحت الاحتلال الفرنسي، ومصر تحت الاحتلال

الإنكليزي، وليبيا تحت الاحتلال الإيطالي، والمغرب الأقصى تحت الاحتلال الفرنسي الإسباني.

٥-شبه الجزيرة العربية:

انصب اهتمام العثمانيين على اليمن والحجاز أكثر من اهتمامهم بمناطق شبه الجزيرة العربية الأخرى،بل إنهم تركوا بلاد نجد لمدة. تحكم نفسها بنفسها وفقا للعادات والتقاليد القبلية، على أن لا تتحرك ضدهم. أما الخليج العربي فقد كان لوجود القوى الأوربية فيه أثرُهُ في تحجيم السيطرة العثمانية عليه عدا بعض السواحل الشمالية الغربية منه. وكان اهتمامُ العثمانيين بالحجاز يعود إلى المكانة المقدسة التي يحتلها بوجود مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان موقع اليمن في مدخل البحر الأحمر (باب المندب) وسواحله الممتدة على البحر العربي وميناء عدن قد شكلت هدفاً ستراتيجياً للبرتغاليين الغزاة،فكان لابد أن تتحرك الدولة العثمانية للسيطرة على اليمن لحماية أمنها ومصالحها؛ لأنه القاعدة التي يمكن أن تحرس بوابة البحر الأحمر.

أ- اليمن:

يقع اليمن في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية بين خطي عرض (١٢ ـ ١٨) شمالاً، ويحده البحر الأحمر غرباً، والبحر العربي جنوباً وتسمى سواحل اليمن الممتدة من جهة البحر الأحمر (تهامة) ويليها شرقاً المرتفعات الجبلية التي تمتد بشكلٍ مواز لسهل تهامة من الشمال إلى الجنوب، والتي يتراوح ارتفاعها من (٦٠٠ إلى ١٥٠٠) متراً فوق سطح البحر في قسمها الجنوبي، ومن (١٥٠٠ إلى ٣٥٠٠) متراً فوق سطح البحر في قسمها الأوسط والشمالي، وهي أعلى جبال شبه جزيرة العرب على الإطلاق. وتكثر في هذه الجبال الحصون التي شيدها أهل اليمن في أوقات مختلفة لأغراض دفاعية حصينة، وقد استفاد الزيديون والإسماعيليون من هذه الحصون في التمركز بها لنشر دعوتهم في اليمن. وكانت الإمامية الزيدية قديمة وظهر هذا المذهب في اليمن خلال القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي.

يعتبر اليمن مهد حضارة قديمة وهو من أعرق مناطق شبه الجزيرة العربية حضارة، بل هو منبع الكثير من الهجرات التي اندفعت إلى العديد من مناطق شبه

الجزيرة العربية خاصة والوطن العربي عامة، وأقامت الحضارات فيه في التاريخ القديم.

وفي عهد الدولة العربية الإسلامية أصبح اليمن جزءاً منها، ولكن ضعف الخلافة العباسية ببغداد في القرن الثالث الهجري، أدى إلى ظهور كيانات سياسية مستقلة مع بقاء تبعيتهم للعباسيين اسمياً مثل بنو زياد والنجاحيين وغيرهم، إلى أن أعيد توحيد كيان اليمن السياسي أيام الصليحيين، ومن تبعهم من الأيوبيين والرسوليين والطاهريين.

اليمن قبل الاحتلال العثماني:

يبدأ تاريخ اليمن الحديث مع أواخر حكم الطاهريين في القرن السادس عشر الميلادي / العاشر الهجري، على الرغم من أن الطاهريين يحسبون على التاريخ الإسلامي.

ففي بداية هذا القرن كان البرتغاليون قد سلكوا طريق الساحل الأفريقي المباشر إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح مروراً بسواحل اليمن وباب المندب، فحولوا تجارة الشرق إلى هذا الطريق الجديد بدلاً من البحر الأحمر والخليج العربي، وكان هذا يعني انتقال مهنة التجارة البحرية والسيطرة عليها من العرب، ومنهم أهل اليمن، إلى البرتغاليين، وقد تزامن ذلك مع انهيار حكم الطاهريين وانتقال السيادة من أيدي أهل اليمن الجنوبيين السهليين إلى أيدي الشماليين الجبليين، وهم الائمه الزيدية وأتباعهم، الذين سيطروا على اليمن حتى قيام ثورة سبتمبر / أيلول عام (١٩٦٢م).

امتد حكم الدولة الطاهرية للفترة (١٤٥٤ ـ ١٥١٧م) وكانت اليمن في البداية مقسمة بينهم وبين الإمامية الزيدية، الذين تحصنوا بالمنطقة الجبلية الشمالية، إلى أن تمكن آخر ملوك الطاهريين السلطان عامر بن عبد الوهاب من إضعاف الأئمة الزيدية واستولى على صنعاء، ومد نفوذه إلى الشمال.

تولى عامر بن عبد الوهاب الحكم في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي عام (١٤٨٩م) وامتد حكمه تسعة وعشرين عاماً،و لما كانت عدن ولحج هي المنطقة التي انطلق منها الطاهريون، عندما كانوا ولاة الرسوليين عليها، ليؤسسوا دولتهم

بعد ضعف الرسوليين، فقد اهتم عامر بن عبد الوهاب بالقضايا الاقتصادية وبالذات التجارة والزراعة شأنه شأن أسلافه الطاهريين؛ لأن منطقتهم كانت زراعية وتجارية بحكم موقعها الجغرافي. وعندما جاء الغزو البرتغالي لم يتمكن عامر بن عبد الوهاب من مواجهته بقوة وجدية لانشغاله بالحروب الداخلية، وعدم وجود أسطول حربي قوي لديه و عدم امتلاكه الأسلحة الحديثة، التي جاء بها البرتغاليون واستخدموها بقسوة وشدة ضد العرب وسفنهم وتجارتهم، يضاف إلى هذا كله الحصار البحري الذي فرضه البرتغاليون، مما أضعف إيرادات الطاهريين الضخمة التي كانت تأتيهم من الموانئ اليمنية.

ومع ذلك فقد أمر السلطان عامر بن عبد الوهاب بتجهيز حملة بحرية عام (١٥٠٧ م) لقتال البرتغاليين في الهند شارك فيها متطوعون من العلماء والفقهاء وطلبة العلم للجهاد ضد البرتغاليين، بيد أن هذه الحملة قد أجهز عليها البرتغاليون ولم يَرِدْ أي خبر عنها بعد إبحارها، وربما كانت التجهيزات الحربية البسيطة والسفن العادية التي جهزت بها الحملة سبباً لضياعها وفشلها. ولم يكن موقف المماليك في مصر بأحسن منه حيث فشلت حملتهم إلى الهند بعد ان استنجد بهم المسلمون هناك، وهُزموا أمام البرتغاليين في معركة (ديو) عام (١٥٠٩م).

وفي هذه الفترة تم تعيين الفونسو البوكيرك نائباً للملك في الهند الذي كان يؤمن أن السيطرة على مصادر التجارة أسهل بكثير من مطاردة السفن التجارية في عرض البحر، ولذلك سعى للسيطرة على مناطق استراتيجية في الهند ومضيق هرمز وميناء عدن، لإغلاق طريق البحر الأحمر إلى مصر، والسيطرة على مصادر التجارة

اتجه البوكيرك إلى عدن في شباط / فبراير عام (١٥١٣م) على رأس حملة بحرية كبيرة وهاجمها عندما وصل إليها في شهر مارس / آذار حينما كان عامر بن عبدالوهاب مشغولاً في حروبه الداخلية رغم سيطرته على صنعاء، ومع ذلك جهز السلطان عامر حملة حربية إلى عدن لنجدتها وأمر الأمراء في الموانئ اليمنية باتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن موانئهم. وقبل وصول حملة السلطان عامر هاجم البرتغاليون ميناء عدن ونهبوا البضائع ثم أنزل البوكيرك جنوده إلى البر لاحتلال عدن، فقاومه أهلها من خلف أسوار المدينة مما اضطر البرتغاليين إلى الانسحاب مخلفين بعض القتلى، إلا أن البوكيرك بقي في ميناء عدن وأحرق الكثير من السفن

الراسية فيه، ثم اتجه إلى البحر الأحمر، واحتل جزيرة كمران ودمر ما فيها من مظاهر الحياة، ولم يتمكن من الوصول إلى ميناء جدة بسبب الرياح فعاد إلى عدن وقصفها بالمدافع لأسبوعين، ثم غادرها إلى الهند بعد أن استطلع منطقه البحر الأحمر. وكانت من توصياته إقامة حصن قوي في عدن للبرتغاليين والقضاء على سلطة مصر في البحر الأحمر، وتخريب مكة المكرمة وغلق مضيق باب المندب لصالح البرتغاليين.

لقد وصل عجز الطاهريين عن الدفاع إلى درجة أن الحملة التي أمر بها عامر بن عبد الوهاب لم تصل إلى عدن، حتى بعد انسحاب البوكيرك، وقد اضطر أهل عدن لمقاومة البرتغاليين بإمكاناتهم الذاتية، وكان لتصاعد روح المقاومة ضد الغزو البرتغالي لليمن أن طلب أهالي تهامة من السلطان عامر تزويدهم بالسلاح لمهاجمة البرتغاليين عندما كانوا في جزيرة كمران، ولكن السلطان رفض طلبهم وبقى سلبياً في موقفه من البرتغاليين إلى أن انسحبوا منها.

اهتم المماليك بالخطر البرتغالي وتوغله في البحر الأحمر فطلبوا من العثمانيين مساعدتهم، فتم تهيئة أسطول عثماني في عام (١٥١١م)، واستغرق الإعداد للحملة حتى عام (١٥١٥م) وسميت (حملة الهند) لكنها لم تصل إلى الهند بل توقفت عند ميناء عدن لإقامة القواعد البحرية على السواحل اليمنية لغلق البحر الأحمر أمام البرتغاليين. وكان عامر بن عبد الوهاب قد وافق على إقامة هذه القواعد عندما استنجد بالمماليك بعد هجوم البوكيرك على عدن عام (١٥١٣م)، ولما فشل الهجوم من دون مساعدة خارجية وتأخر وصول النجدة المصرية تراجع السلطان عامر عن الوفاء بعهده هذه المرة مما اضطر المماليك إلى مهاجمة السواحل اليمنية بالقوة، ومن ثم احتلال اليمن، وإسقاط الدولة الطاهرية بالتعاون مع بعض القبائل اليمنية وفي مقدمتهم الإمامية الزيدية.

كان المماليك قد تمكنوا من احتلال تهامة وبعد معارك مع الطاهريين دخلوا مدينة زبيد في يونيو/ حزيران عام (١٥١٦م) ونهبوها، وبعد أقل من عام احتلوا مدينة تعز من دون قتال ونهبوها بعد أن انسحب منها عامر بن عبد الوهاب إثر تفرق قواته القبلية التي خشيت من قتال المماليك، لامتلاكهم أسلحة حديثة مكنتهم من دحر الطاهريين في معار ك سابقه.

توجه عامر بن عبدالوهاب إلى مدينة إب بعد انسحابه من تعز، وعندما علم بتقدم المماليك إلى عاصمته المقرانة سبقهم إليها، وأخرج منها أمواله ونساءه قبل وصولهم، فاحتلها المماليك بعد انسحابه منها ونهبوها.

ثم توجه قائد الحملة المملوكي برسباي إلى بلاد آل عمار الذين وفدوا إليه وبايعوه وطلبوا منه الذهاب معهم إلى بلادهم، وعند وصوله قتلوه مع من جاء معه من أصحابه، فاختار جنده الذين بقوا في المقرانه إسكندر بن محمد قائداً جديداً لهم والذي توجه بهم إلى صنعاء، وحاصرها فلحق بهم السلطان عامر بن عبدالوهاب بعد أن سمع بمقتل برسباي وخاض مع المماليك معركة ضارية دفاعاً عن صنعاء لكنه قتل مع أخيه عبد الملك في المعركة في شهر مايو / أيار عام (١٥١٧م).

تزامنت مع نهاية الدولة الطاهرية نهاية دولة المماليك في مصر والشام بعد أن انتصر السلطان العثماني سليم الأول على المماليك في معركة مرج دابق عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) واحتل مصر عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) وعندما وصلت الأخبار إلى إسكندر وقادة المماليك في اليمن، أعلنوا ولاءهم للعثمانيين وجعلوا الخطبة في صنعاء باسم السلطان العثماني سليم الأول ثم قرر إسكندر الانتقال إلى زبيد لمتابعة الأحداث، ولكن خبر سقوط دولة المماليك أثار استخفاف القبائل اليمنية بإسكندر وقواته فهاجمته قبائل بلاد إب وهو في طريقه إلى زبيد؛ فقد فوجئ المماليك بقبائل حبيش ومخلاف الشوافي وغيرهم من أهل منطقة بلاد إب الجبلية وسط بلاد اليمن تهاجمهم وتقتل عدداً كبيراً منهم. ويصف ابن الديبع في مخطوطه (قرة العيون) معركة بلاد إب هذه التي نجا منها إسكندر بصعوبة فيقول أنها كانت:

«وقعة عظيمة نصر فيها حبيش عليهم، فقتلوا الأبطال، ونهبوا الأموال، واستنقذوا الشيخ عامر بن عبد الملك بن عبد الوهاب منهم [كان أسيرا لديهم]، وأخذوا عليهم جميع ما أخذوه من المقرانة وصنعاء، وكانت وقر ثمانية آلاف جمل من الذخائر والجواهر والنقود والنفائس والأموال والذهب الأحمر والفضة والقماش والسلاح والعدد وغير ذلك».

أما المؤرخ عيسى بن لطف الله بن شرف الدين فقد وصف معركة بلاد إب على النحو الأتي:

«إن الغارات كانت تنادي بالثارات فقتل من الشراكسة أمة، ونهب ما قد جمعوه من الجواهر والعين والذهب واللجين وصار أثراً بعد عين واستكفلوا الخيل والبغال والجمال والأحمال. وكانت حملة مستكثرة وذخائر موقرة وفي جملة ما استنقذوه من الشراكسة من الأسرى عامر بن عبد الملك بن عبد الوهاب».

إن إشارة المؤرخ شرف الدين إلى الغارات كانت تنادي بالثار وأنقذت عامر بن عبد الملك بن عبد الوهاب، أي: أن عامر بن عبد الوهاب هو عمه، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن هجوم قبائل بلاد إب لم يكن لمجرد الحصول على الغنائم وإنما كان انتقاما وثأرا لمقتل عامر بن عبد الوهاب وشقيقه عبد الملك وأسر ولديهما.

من جانب آخر فإن سقوط دولة المماليك في مصر والشام، وانحسار نفوذهم في اليمن وانشغال الإمامية الزيدية في حروب شمال اليمن قد دفع بقايا الطاهريين إلى محاولة إعادة حكمهم، ومنهم الأمير عامر بن داود الطاهري الذي كان متحصنا في بلاد رداع منذ سقوط دويلتهم، فامتد نفوذه إلى بلاد إب وبلاد تعز إلا أنه لم يدم طويلاً بعد أن تفرغ له الإمام الزيدي يحيى شرف الدين، حيث تمكنت قواته بقيادة ابنه المطهر من بسط نفوذها على بلاد إب وعموم مخلاف جعفر وحصونه بما فيها مدينة إب.

الاحتلال العثماني الأول لليمن

انقسم الاحتلال العثماني لليمن إلى عهدين تخللهما قيام حكم الأئمة الزيدية (القاسميون) والذي استمر رغم عودة العثمانيين لاحتلال اليمن في عهدهم الثاني. لقد دخلت اليمن تحت السيطرة العثمانية مع سقوط حكم المماليك في مصر عام (٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) حين أعلن المماليك في اليمن خضوعهم للسيادة العثمانية، إلا أن الاحتلال العثماني الفعلي لليمن قد بدأ مع الحملة البحرية الكبيرة، التي أمر بها السلطان العثماني سليمان القانوني لمواجهة البرتغاليين في الهند والقضاء على سيطرتهم في المحيط الهندي. وقد أبحرت هذه الحملة عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) بقيادة والي مصر سليمان باشا الخادم الذي استولى على عدن بعد أن قتل آخر الطاهريين فيها عامر بن داود، وعيّن محله عليها واليا تركيا ليبدأ الفتح العثماني الأول لليمن.

فشلت حملة سليمان الخادم إلى الهند ولم تحقق أهدافها فعاد إلى اليمن واحتل الشحر وحضرموت وزبيد وتهامة، وفي السنوات التي تلت تَقَدَّمَ العثمانيون داخل اليمن لكنهم لم يتمكنوا من احتلال صنعاء إلا في زمن الوالي ازدمر باشا عام (٩٥٦هـ/ ١٥٤٧م) أما عن الإمامية الزيدية في الشمال فقد اضطروا إلى توقيع الصلح مع العثمانيين في زمن المطهر شرف الدين. لكنه عاد فانتفض عندما ضعفت سلطة العثمانيين بسبب الصراعات بين الولاة العثمانيين (محمود باشا ورضوان باشا ومراد باشا) مما أدى إلى انهيار السلطة العثمانية، ودخول الإمام الزيدي المطهر صنعاء في صفر من عام (٩٧٥هـ/آب أغسطس ١٥٦٧م) كما اكتسحت قواته فلول الجيش العثماني في المناطق الجنوبية حتى وصلت عدن فانحصرت السلطة العثمانية في مدينة زبيد وما حولها من المنطقة التهامية.

إن انهيار السلطة العثمانية في اليمن قد دفع العثمانيين إلى إعداد حملة كبيرة بقيادة سنان باشا والذي استطاع خلال سنتين (٩٧٦-٩٧٨هـ / ١٥٦٩-١٥٧١م) من استرداد الكثير من المناطق التي كان الإمام المطهر قد استولى عليها. وبوفاة المطهر في رجب عام (٩٨٠هـ/ نوفمبر ١٥٧٢م) انتهت إمامة آل شرف الدين، ولم يستطيعوا النهوض من جديد رغم محاولاتهم اليائسة ولذلك عاشت السيطرة العثمانية في اليمن خلال حكم الوالي حسن باشا الوزير ولمدة ربع قرن (٩٨٩-١٠١٣هـ / ١٥٨٠-١٦٠٤م) استقراراً نسبياً وبسطاً للسلطة المركزية للوالي العثماني ولكن الفساد الإداري والظلم والوحشية التركية، قد فجرت بعد ذلك ثورة بقيادة الإمام الزيدي القاسم بن محمد الذي أسس حكم أسرة القاسميين التي توارثت الحكم في اليمن إلى قيام ثورة ٢٦ أيلول عام (١٩٦٢م)[١].

لقد تمكن القاسميون من فرض أنفسهم على العثمانيين الذين اعترفوا بسلطتهم في المناطق الشمالية لصنعاء بعد فشل العثمانيين في تحقيق أي نصر خلال ثلاث سنوات من الحروب معهم.. وقد أدى ضعف العثمانيين إلى دخول القاسميين مدينة صنعاء بعد معارك معهم في أول رجب من دولته.٨هـ / ٢٣ شباط. فبراير عام

(١)

(١٦٢٩م)، وبعد ثلاثة أشهر سقطت تعز بأيديهم مما فتح الأبواب أمام القاسميين للسيطرة على بقية المناطق الجنوبية بعد عام واحد من حصار تعز ودخولها ثم أعلنت عدن الطاعة فكانت بداية نهاية الأتراك العثمانيين وحصارهم في زبيد الذي كان طويلا وقاسيا عليهم فانهارت القوات العثمانية وتركوا اليمن إلى مصر في شهر جمادي الآخرة من عام (١٠٥٤هـ / أكتوبر تشرين الأول ١٦٣٦م) لينتهي بذلك العهد العثماني الأول في اليمن، وحل محله حكم أسرة الإمام القاسم بن محمد لأكثر من قرنين من الزمن عاد بعدها العثمانيون مرة ثانية ليحتلوا اليمن عام (١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م) وحتى نهاية الدولة العثمانية عام (١٣٣٩هـ / ١٩١٨م) وهو العهد العثماني الثاني في اليمن الذي أصبح ولاية عثمانية مع استمرار حكم الإمامية الزيدية القاسميين في الشمال الذين دخلوا في صراع معه.

محمد علي باشا واحتلال البريطانيين لعدن:

كان احتلال اليمن جزءاً من مشروع والي مصر محمد علي باشا بضم شبه الجزيرة العربية إلى دولته. ففي عام (١٨٣٥م) تمكنت قوات محمد علي بقيادة إبراهيم باشا يكن من احتلال تهامة و اليمامة وإقامة حكم تابع لمحمد علي مركزه مدينه تعز. وبعد معارك عدة مع الإمامية الزيدية (القاسميون) الذين أصابهم الضعف بعد وفاة الإمام المهدي بن عبدالله (١٨١٦ ـ ١٨٥٣م) آخر الحكام القاسمين الأقوياء، أصبحت اليمن عدا صنعاء تحت حكم محمد علي باشا، وعندما اقتربت قوات محمد علي من ميناء عدن عام (١٨٣٧م) خشيت بريطانيا من أن يحتله محمد علي باشا فيكون بداية لاحتلاله موانئ الجنوب العربي، مما يشكل خطراً على المصالح البريطانية التي كانت قلقه أصلا من نشاطاته في البحر الأحمر والحجاز وخشيت من ازدياد نفوذه وتحكمه في طريق الهند، مثلما حاول فعله نابليون بونابرت عند احتلاله مصر عام (١٧٩٨م).

كان ميناء عدن بالنسبة للبريطانيين ميناء حيوياً بموقعه الاستراتيجي على طريق الهند، ولأن البريطانيين جعلوه محطة تتزود منه بواخرهم بالفحم منذ عام (١٨٢٩م)، لذلك أخذت تبحث عن وسيلة لاحتلاله قبل أن يستولي عليه محمد علي باشا،فسنحت الفرصة عندما هاجم أهل عدن باخرة بريطانية، وكانت جزءاً من

هجمات عربية لمقاومة السفن الأجنبية في سواحل الجزيرة العربية و الخليج العربي، فتقدم الأسطول البريطاني في منتصف كانون الثاني عام (١٨٣٩م) إلى عدن لاحتلالها، وقاوم أهل عدن نزول الجنود البريطانيين على أرضهم، ودافعوا عن قلعة عدن وصمدوا رافضين التسليم، ولكن الجنود البريطانيين احتلوا الميناء ورفعوا العلم البريطاني على قصر السلطان.

إن احتلال عدن قد وضع حداً لنفوذ محمد علي باشا في اليمن، ولذلك ونتيجة للضغوط الأوربية أصدر محمد علي في مارس / آذار عام (١٨٤٠م) أمراً إلى قواته بالجلاء عن اليمن، وتسليم الأمور إلى الشريف حسين بن حيدر، فانسحبت قواته من اليمن في مايو/ أيار من العام نفسه.

الاحتلال العثماني الثاني:

ازدادت أهمية اليمن بالنسبة للعثمانيين بعد فتح قناة السويس عااستلام الإمامة إن قناةَ السويس سهلت ربط اليمن والحجاز بالعاصمة إسطنبول بحراً، ولذلك توجهت حملة عثمانية بقيادة الوالي أحمد مختار باشا، وأعادت احتلال اليمن ودخلت صنعاء في شهر ابريل/ نيسان عام (١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م) ليصبح اليمن ولاية عثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٨م) أي: مدة ٤٦ عاماً،مع بقاء سلطة الإمامية الزيدية (القاسميون) في شمال اليمن،والذين دخلوا في صراع مع العثمانيين حتى عام (١٩١١م) عندما وقَّعَ الطرفان صلح دعان.

شهد اليمن بعد الاحتلال العثماني الثاني استقرارا نسبياً لحين استلم الإمامة محمد بن يحي حميد الدين عام (١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) والذي تلقب بالمنصور، إذ بدأت مقاومة الوجود العثماني التركي في اليمن. وحاول الإمام المنصور أن يفرض نفوذه في اليمن الأسفل في مناطق إب وجبلة وتعز، ولكن وطأة النفوذ العثماني التركي فيها وفي تهامة كانت شديدة وقوية، لسهولة إيصال الإمدادات العسكرية من ميناء الحديدة والمخا، ولذلك فإن المعارك التي قامت بين اليمنيين والأتراك العثمانيين في سهول إب وحول مدينة إب، ومدينة جبلة وفي القاعدة وقعطبة وغيرها لم تأت بنتيجة، ولم تسجل انتصارا حاسما لليمنيين.

كان ابن المنصور يحيى الملقب بسيف الإسلام يشارك والده في انتفاضاته وقتاله الأتراك العثمانيين وكان يتصل بالقبائل لحشد رجالها إلى جانبهم. وعندما

توفي المنصور عام (١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م) بويع سيف الإسلام يحيى بالإمامة فاستمر على نهج والده وتمكن من فرض حصار شديد على الأتراك في مدينة صنعاء عام (١٩٠٥م) استمر لعدة أشهر إلى أن جاءت قوة عسكرية عثمانية بقيادة أحمد فيضي تمكنت من إنهاء الحصار حيث انسحب الإمام يحيى من سور صنعاء إلى بلاد حاشد من دون أن يقاتل القوة العثمانية المتجهة إلى صنعاء؛ لأنه وجدها قوة كبيرة لا يستطيع قتالها.

أما أحمد فيضي فلم يكتف بصنعاء بل خاض معارك خارجها تمكن فيها من الاستيلاء على مدن مهمة كانت تحت سيطرة الإمام يحيى مثل: كوكبان وعمران وحجة وغيرها،إلا أن هذه المعارك أنهكت وأتعبت القوات العثمانية وكلفت أموالاً طائلة فالتجأ العثمانيون إلى التفاوض مع الإمام يحيى فطرح شروطه للحصول على صلاحيات واسعة في الحكم والسيطرة مع الاعتراف بالسيادة العثمانية على اليمن. لكن العثمانيين رفضوا شروط الإمام يحيى، لأنها تنتقص من سيادتهم.

حاول العثمانيون التفاوض مرة أخرى مع الإمام يحيى فأرسل السلطان العثماني إلى اليمن ثاني وفد من مكة المكرمة ولم يفلح هو الآخر بالتوصل إلى اتفاق؛ لأن إمام اليمن أصر على مطالبه، واستمرت الأمور بعد ذلك مجمدة من دون قتال بين الطرفين عدا بعض المناوشات. ولما كان الوالي أحمد فيضي يشكل عائقاً في التفاهم مع اليمنيين لكرههم له بسبب مواقفه المعادية لهم فقد تم عزله عام (١٩٠٨م) وعين حسن تحسين باشا والياً على اليمن.وقد تحسنت أحوال اليمن في عهده وسكن القتال بعد أن اتفق مع الإمام يحيى أن لا يعتدي أحدهما على الآخر أملاً في التوصل إلى اتفاق،لكن الوفود اليمنية التي قابلت السلطان العثماني فشلت في التوصل إلى اتفاق.

وعندما وقع الانقلاب العثماني الذي قادته جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول عام (١٩٠٨م) والتي تبنت السياسة العنصرية بتتربك العرب وغيرهم من شعوب الدولة العثمانية، لم يعد الخلاف مع العرب حول مفاسد الحكومة وظلم الولاة الأتراك فقط، وإنما حول هوية العرب القومية أيضا،وقد انعكس ذلك في سياسة الوالي الجديد محمد علي باشا الذي عينه الاتحاديون والذي امتاز باستخدام الشدة

والقسوة والشراسة في تعامله مع اليمنيين، فتجددت المعارك مع الإمام يحيى الذي تمكن من فرض الحصار من جديد على صنعاء عام (١٩١١م) وبداخلها الوالي التركي المكروه محمد علي باشا. فأرسلت السلطة العثمانية جيشاً قوياً بقيادة رئيس أركان الجيش أحمد عزت باشا تقدم من الحديدة وخاض معارك عديدة في طريقه إلى صنعاء فانسحب الإمام يحيى من سور صنعاء بعد أن حاصرها أربعةَ أشهر، ودخلها أحمد عزت الذي بذل جهوداً حثيثة بعد توقف القتال لعقد صلح مع الإمام يحيى، وقد تم له ما أراد بتوقيع صلح دعان عام (١٩١١م) والذي أوقف الصراع باعتراف الإمام بالسيادة العثمانية مقابل الاستجابة لمطالبه، واستمر هذا الاتفاق فاعلا إلى سقوط الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٨م).

أصبحت اليمن بعد اتفاق دعان تخضع لثلاث قوى متهادنة: البريطانيين في الجنوب والعثمانيين والإمامية الزيدية في الوسط والشمال. إلا أنه كانت هناك قوة رابعة في منطقة عسير التي يعتبرها الإمام جزءاً من اليمن وهم الأدارسة. فقد استطاع محمد بن علي بن أحمد الإدريسي أن يستثمر النفوذ الروحي لأسرته في عسير ليحصل على نفوذ سياسي فيها مما دفع العثمانيين إلى قتاله وكان موقف الإمام قبل صلح دعان هو الترحيب بمحمد الإدريسي والدخول في تحالف معه ليكون حماية له في مؤخرته عند تقدمه إلى صنعاء لحصارها. ولكن الإدريسي رفض اتّفاق دعان وأعلن التمرد ضد العثمانيين في الشهر نفسه الذي وقع فيه الصلح، واحتل أبها، ولجأ إلى جبال عسير الجنوبية واتخذها حصنا له.

وعندما احتل الإيطاليون ليبيا وظهرت المقاومة الليبية ضدهم، كتب متصرّفُ عسير إلى الإدريسي يطلب منه الصلح مع الدولة العثمانية للوقوف معها ضد أعداء الدين الإيطاليين، ولكن الإدريسي لم يستجب بل اتصل بالإيطاليين وزودوه بالسلاح لقتال العثمانيين، ولم تفلح أي محاولات للصلح بينه وبين العثمانيين، أو مع الإمامية الزيدية. وقد استمرت المعارك والمناوشات بين الأدارسة والإمامية حتى بعد انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى.

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٨م) وفرض الحلفاء شروطهم قام الجنود العثمانيون في اليمن وعسير بتسليم أسلحتهم إلى البريطانيين في

عدن. ودخل الإمام يحيى صنعاء بناء على دعوة الوالي محمود نديم بك في نوفمبر عام (١٩١٨م). أما الحديدة فقد قصفها البريطانيون وسلموها إلى الإدريسي الذي تحالف معهم خشية من سيطرة الإمام يحيى عليه. وهكذا شهدت نهاية الحرب العالمية الأولى وضعاً سياسياً جديداً في اليمن كان له أثره في تطور الأحداث السياسية بعد الحرب.

ب - نجد والحجاز:

كانت الحجاز تحكم من قبل الأشراف الذين يعود نسبهم إلى النبي محمد ﷺ وقد دخلت الحجاز تحت السيادة العثمانية سلمياً عندما احتل السلطان العثماني سليم الأول مصر عام (١٥١٧م) حيث أعلن شريف مكة ولاءه للعثمانيين. أما عن بلاد نجد فإن الدولة العثمانية لم تتدخل في شؤون الإمارات الصغيرة، التي كانت منتشرة فيها مثل آل معمر في العيينة، ودهام بن دواس في الرياض، وآل زامل في الخرج وآل سعود في الدرعية، وترك العثمانيون نجد يحكمها أهلها بطريقتهم القبلية ما داموا غيرَ معادين لهم، إضافة إلى أن بلاد نجد كانت فقيرة في مواردها ولا تثير اهتمام العثمانيين بعكس اليمن والأحساء، والحجاز، وهذه الأخيرة لها مكانتها الدينية الخاصة عند المسلمين لوجود مكة المكرمة والمدينة المنورة فيها.

لقد بقي الحال في نجد والحجاز على ما هو عليه إلى أن ظهرت دعوة محمد بن عبد الوهاب المعروفة بالحركة الوهابية والتي اتفقت لا حقاً مع آل سعود ليكونا حلفاً وتعاهداً أبدياً كان له تأثيره ودوره في تغيير الواقع السياسي والاجتماعي في شبه الجزيرة العربية عموماً ونجد والحجاز بشكل خاص، علماً أنه لم يكن لآل سعود قبل هذا مكانة في نجد بل أنه لم يكن لهم تأثير يذكر في شؤون الجزيرة العربية، ولكن تبنيهم لدعوة محمد عبد الوهاب، قد جعلت منهم قوةً كبيرة تمكنت على الرغم من الانتكاسات، التي أصيبت بها أن تسيطر في النهاية على نجد والحجاز، لتقيم دولتها (المملكة العربية السعودية) في مطلع القرن العشرين،

الدعوة الوهابية وآل سعود:

لكي تكون الصورة واضحة لا بد من أن نتناول المبادئ، التي نادى بها محمد بن عبد الوهاب، فقد سادت الخرافات والجهالة ودخلت في عقيدة الإسلام أمور

الشعوذة، وكثُر السحرة والمشعوذون والجهلاء في الجزيرة العربية في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، فكانت هذه البيئة غير الصحية مساعداً كبيراً في استجابة الكثير من المسلمين لدعوة محمد بن عبد الوهاب في العودة إلى أصول الإسلام متأثراً بأحمد بن حنبل وابن تيمية، واتخذ مبدأ التوحيد أساساً لدعوته واعتبر التعبد إلى الأضرحة والقبور شركاً بالله، ولذلك فهو يؤمن أنه لا يمكن أن تستقيم دعوة التوحيد من دون محاربة البدع مثل الاستعاذة بغير الله، والاستغاثة بغيره والاستشفاع بسواه، وتبنى محمد بن عبد الوهاب مبدأ الجهاد في سبيل نشر دعوته وعلى الأساس الذي يقول «من آمن وطبق مبدأ التوحيد، وتجنب الشفاعة غير المشروعة، وتجنب تقديس القبور، سلم من الحرب المشروعة ومن خالف هذه الدعوة أصبح دمه وماله حلاً للمجاهدين الموحدين حتى يعود إلى طريق التوحيد الخالص» ولذلك اعتبر محمد بن عبد الوهاب غنائم غزواته في شبه الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام حلالاً له ولأنصاره إن أمكنهم البقاء في الأرض التي يسيطرون عليها ليلحقوها بأملاكهم، وإذا لم يمكنهم البقاء اكتفوا بما يصل إلى أيديهم من الغنيمة، وتطبيقاً لمبدأ التوحيد وعدم الشرك بالله، فقد شارك محمد بن عبد الوهاب في هدم القباب والأضرحة بما فيها قبور الصحابة.

لم تلق دعوة محمد بن عبد الوهاب ترحيباً في العديد من مناطق شبه الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام، لأن الكثيرين وجدوا فيها تطرفاً وغلواً غير اعتيادي ولذلك واجه محمد بن عبد الوهاب الكثير من المصاعب والمشاكل في نشر دعوته. فقد خرج من البصرة مغضوباً عليه وكاد أن يموت في طريق الصحراء، كما اضطر حليفه أمير العيينة عثمان بن معمر أن يطلب منه مغادرتها؛ لأن أمير الأحساء سليمان هدد عثمان بقطع الخراج عنه إذا لم يقتل محمد بن عبد الوهاب، فغادر العينية وذهب إلى الدرعية عاصمة آل سعود عام (١١٥٧هـ/ ١٧٤٣م) لتبدأ مرحلة جديدة ومهمة في دعوته وفي تاريخ نجد والحجاز حين نجح في استقطاب أمراء آل سعود فاجتمعت إرادته الدينية مع إرادتهم القتالية بعد أن آمنوا بدعوته، فحصل اتفاق وتعاهد بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود لنشر الدعوة بقوة السلاح إذا لم تنفع أساليب الإقناع،علماً أن حدود إمارة آل سعود لم تكن تتعدى عندما بدأوا دعوتهم بلدتين أو ثلاثاً من القرى التابعة لها في وادي حنيفة بنجد.

يقسم الباحثون والمؤرخون مراحل الحركة الوهابية السعودية في بلاد نجد والحجاز من دخول محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية وتحالفه مع آل سعود عام (١٧٤٤م) وحتى قيام المملكة العربية السعودية عام (١٩٣٢م) إلى ثلاثة عهود:

الأول: ينتهي بقضاء محمد علي باشا على الحركة الوهابية السعودية، واحتلاله لنجد والحجاز وسقوط عاصمتهم الدرعية بيده عام (١٨١٨م)، أما المرحلة الثانية: فتبدأ بعد انسحاب قوات محمد علي من الجزيرة العربية وإعادة السعوديين هيمنتهم على بلاد نجد ابتداء من عهد تركي بن عبد الله، وولده فيصل، ولكن الصراع بين ولدي فيصل (عبدالله و سعود) أدى إلى انهيار السلطة السعودية الوهابية من جديد أمام محمد بن رشيد أمير حائل المتحالف مع العثمانيين والتجأ عبد الرحمن بن فيصل إلى الكويت مستجيراً بآل صباح عام (١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م) .

وتبدأ المرحلة الثالثة: بخروج عبد العزيز بن عبد الرحمن من الكويت عام (١٩٠١م) واستيلائه على الرياض بالهجوم المفاجئ وإعادة سلطة الحركة السعودية الوهابية على نجد والحجاز بالقوة وبالتحالف مع بريطانيا، والذي أدى إلى إنهاء حكم الأشراف على الحجاز وقيام المملكة العربية السعودية في مناطق نجد والحجاز والأحساء وعسير.

الإمارة السعودية الأولى:

في المرحلة الأولى توسعت الدعوة الوهابية بقوة الحملات العسكرية التي قام بها الجيش السعودي الوهابي (الإخوان) بقيادة محمد بن سعود أو ولده عبد العزيز فأثارت الدعوةُ إستياء بنو خالد في الأحساء وآل الكرمي في نجران، واتهم أشراف مكة الوهابيين السعوديين بالمروق عن الدين واستنجدوا بالحكومة العثمانية لكن ذلك لم يؤثر على استقرار الإمارة واستمرارها. وبعد ثلاثين سنة من الحكم توفي محمد بن سعود عام (١٧٦٥م) مخلفاً ابنه الأكبر عبد العزيز الذي سار على نهج والده فأصبحت الدرعية في أواخر القرن الثامن عشر عاصمة دينية وسياسية وعسكرية. وفي سنة (١١٨٧هـ / ١٧٧٣م) تمكن من الاستيلاء على الرياض بعد خمس سنوات من الهجمات المتتالية وطرد منها حاكمها دهام بن دواس. واستمرت هجمات الإخوان بقيادة عبد العزيز على القصيم والبريدة والأحساء فاحتلوها ثم

هاجموا مدينة كربلاء في العراق عام (١٨٠١م) وهدموا الأضرحة، إلا أنهم لم يتمكنوا من مدينة النجف، وكان محمد عبد الوهاب قد توفى قبل هذا بعشرِ سنوات. وهكذا استطاع عبد العزيز أن يوسع إمارته خلال فترة حكمةِ التي امتدت تسعةً وثلاثين عاماً لتشمل الرياض والأحساء والقطيف وكلَّ أراضي نجد.

اعتزل عبد العزيز بعد ذلك وانصرف للعبادة وأخذ البيعة لولده سعود الملقب بالكبير، وكانت معظم المناطق التي تم الاستيلاء عليها سابقاً في حالة تذمر بسبب سلوك قوات الإخوان ووحشيتهم وقسوتهم، مما جعلهم في حالة قتال مستمر، ومع ذلك قام عبد العزيز بالهجوم على الحجاز ودخل مكة المكرمة عام (١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م)، ولكنه أبقى شريف مكة غالب الشريف أميراً عليها بشرط اتباع تعاليم الدعوة الوهابية، وبعد سنتين اضطر أهل المدينة المنورة إلى مبايعة سعود بن عبد العزيز والدخول في طاعته وتطبيق الدعوة الوهابية، فهدمت جميع القباب المقامة على القبور ووصل بالإخوان الأمر إلى محاولة هدم قباب قبر الرسول (ص). واستمرت قوات الإخوان في توسعها بقيادة سعود إلى أطراف اليمن، وعسير وتهامة، ونجران، والإمارات الساحلية في الخليج العربي، فسيطر على عمان ومسقط وهدد بلاد الشام والعراق.

أعلن سعود بن عبد العزيز انتهاء السيادة العثمانية على الحجاز وأجبر الحجاج المصريين وأهل الشام والأتراك على اتباع أسلوب الوهابيين في الحج أو منعهم منه، مما سبب تذمراً ومقاطعة للحج وخسارة مالية لأهل الحجاز؛ لامتناع الناس عن الحج في هذه الظروف الصعبة، التي وصلت إلى تعرضهم للسلب والنهب والقتل، وأخذ شريف مكة يرسل الوفود إلى السلطان العثماني في اسطنبول وإلى والي مصر محمد علي باشا يطلب منهما التدخل لإنقاذ الحجاز من الوهابيين.

إن هذا السلوك الوهابي المتطرف، وفقدان العثمانيين السيادة على الأماكن المقدسة في الحجاز لصالح سلطة لا تدين لهم بالولاء، قد دفع الدولة العثمانية إلى التعبئة المعنوية والعسكرية ضد آل سعود الوهابيين فطلبت من والي مصر محمد علي باشا أن يجهز حملة لإنقاذ الحجاز والقضاء على الوهابيين وشجعت محمد علي بإظهار عدم ممانعتها أن تصبح الحجاز جزءاً من دولته، وعلى الرغم من تباطؤ

محمد علي في الاستجابة فقد أكمل تجهيزاته للحرب وبنى السفن الحربية اللازمة وعهد لابنه طوسون قيادة الحملة العسكرية على الحجاز عام (١١٢٦هـ/ ١٨١١م).

حملة محمد علي وإسقاط إمارة السعوديين:

امتدت حملة محمد علي باشا على بلاد نجد والحجاز لإسقاط الإمارة السعودية الوهابية لسبع سنوات (١٨١١ ـ ١٨١٨م)، وقد ابتدأت بنزول قواته بقيادة ولده طوسون في ميناء ينبع القريب من المدينة المنورة، ولكنه لم يتمكن من دخولها إلا بعد أن جهز محمد علي باشا حملة ثانية مساندة بقيادة ابنه إبراهيم باشا الذي استولى على المدينة المنورة عام (١٨١٢م) فكانت مدخلاً لإعادة السيطرة على الحجاز ومدنه، ليضع بعدها الخطط العسكرية للزحف على نجد. وقد شارك محمد علي باشا بنفسه ببعض هذه الحروب وكانت المعارك سجالاً في نجد وعسير والحجاز تُوُفِيَ خلالها سعود الكبير عام (١٨١٤م) وتولى ولده الكبير عبد الله الإمارة والتي نافسه عليها عمه عبد الله بن محمد بن سعود مما أدى إلى انقسامات داخل الأسرة السعودية سهلت لقوات محمد علي باشا االإنتصار على السعوديين الوهابيين بعد معركة فاصلة عام (١٨١٨م) دخلت على أثرها قوات محمد علي باشا بقيادته وابنه إبراهيم إلى الدرعية، وتم القبض على عبد الله بن سعود وأرسل إلى اسطنبول وقتل هناك وهدمت الدرعية نفسها وانتهى بذلك حكم السعوديين الوهابيين في شبه الجزيرة العربية. وعادت السلطة العثمانية الاسمية لبلاد نجد والحجاز التي أصبحت تحت حكم والي مصر محمد علي باشا فعلياً.

بقيَ إبراهيم باشا وقواته في نجد حتى صيف عام (١٨١٩م) ثم انسحب عائداً إلى مصر بعد أن سلم البلاد إلى قوات الجيش العثماني، وعيّن أحد الأتراك والياً على نجد مع بقاء حاميات مصرية في نجد والحجاز

الإمارة السعودية الثانية:

أدى انسحاب قوات محمد علي باشا من الجزيرة العربية إلى عودة الاضطرابات خصوصاً وأن الأمراء السعوديين عانوا من انقسامات وصراعات فيما بينهم من أجل العودة إلى السلطة، وظهرت من بينهم شخصية قوية هو تركي بن عبد الله الذي أخذ على عاتقه إعادة حكم آل سعود إلى نجد والحجاز فخاض صراعاً

مع الأتراك العثمانيين وقدم هو وأنصاره تضحيات جسام اضطرته إلى الهرب عام (١٨٢٠م) من الرياض، ولكنه استمر في حركته ضد العثمانيين ونجح في التمركز في الرياض عام (١٨٢٢م) ليتخذها عاصمة له إلى أن اغتيل عام (١٨٣٢م) فأعلن ابنُه فيصلٌ نفسَه إماماً وحاكماً على نجد.

كان فيصلُ بنُ تركي من بين الأسرى الذين أرسلهم إبراهيم باشا إلى مصر بعد دخوله الدرعية، وبقي في القاهرة إلى أن هرب منها وعاد إلى نجد ليشارك والده تركي في حروبه ضد الأتراك العثمانيين، وضد أقربائهم من أمراء آل سعود المنافسين لهم، وعندما كان على رأس قوات الإخوان التي هاجمت الأحساء اغتيل والده فاستلم الإمامة والإمارة من بعده عام (١٨٣٥م) وحتى (١٨٣٩م) وتمكن من السيطرة على نجد، لكن القائد المصري خورشيد تمكن من حصاره في بلاد الخرج ونفاه مرة أخرى إلى مصر فظل فيها مدة أربع سنوات ليهرب مرة ثانية ويعود إلى الرياض ليحكمها عام (١٨٤٢م)، وقد ساعده في ذلك انسحاب محمد علي باشا والي مصر من الجزيرة العربية عام (١٨٤٠م) وفقاً لمعاهدة لندن التي أجبرته على الإنكفاء والاكتفاء بحكم ولاية مصر وراثياً. ولكي يضمن مستقبل إمارته الجديدة قام فيصل بن تركي بمهادنة العثمانيين والاعتراف لهم بالسيادة الاسمية على نجد والحجاز لتظهر إلى الوجود إمارة آل سعود الثانية بعد عشرين سنة من حكم محمد علي باشا لأرض نجد والحجاز، تُوُفِيَ فيصل بن تركي عام (١٨٦٥م)، فقامت الحرب بين ولديه عبد الله وسعود من أجل السلطة مما أدى إلى انهيار حكم آل سعود مرة ثانية وتجزئة الإمارة بينهما وبين خصومهما، من آل رشيد والأتراك العثمانيين، فقد سيطر آل رشيد على القسم الشمالي من نجد في حين ظلت سيطرة آل سعود اسمية على الرياض والخرج والقسم الجنوبي من نجد.

تمكن محمد بن الرشيد من بسط نفوذه على الرياض بسبب الصراع القائم بين آل سعود الذين أصبحوا تحت رحمته وعندما حاول عبد الرحمن بن فيصل،أخو عبد الله وسعود، التصدي لآل الرشيد خاب في ذلك وأجبره محمد بن الرشيد على مغادرة نجد فالتجأ مع ولده عبد العزيز إلى الكويت عام (١٨٩١م) مستجيراً بقائم مقام الكويت الشيخ مبارك الصباح الذي كان تابعاً للسلطة العثمانية في ولاية البصرة

مع إقامته علاقات جيدة مع البريطانيين الذين قدموا الحماية له لمنع العثمانيين من السيطرة عليه.

التطورات السياسية في نجد والحجاز حتى قيام الحرب العالمية الأولى:

لم يستكن عبد العزيز بن عبد الرحمن خلال فترة لجوئه مع والده إلى الكويت وكان بتشجيع من والده ومن شيخ الكويت يخطط لإستعادة سلطة آل سعود في بلاد نجد والحجاز، وفي مطلع عام (١٩٠٢م) تمكن بعد محاولة خائبة من أن يدخل الرياض مع أعوانه ويقتل عامل أبن الرشيد فيها لتبدأ المرحلة الثالثة من تاريخ آل سعود في شبه الجزيرة العربية، وهي الخطوة الأولى لتأسيس المملكة العربية السعودية بعد الحرب العالمية الأولى.

استطاع عبد العزيز أن يمد سلطاته إلى المناطق المحيطة بمدينة الرياض ثم تنازل له والده عن الإمارة عام (١٩٠٢م). وقد واجه عبد العزيز قوتين رئيستين أمام طموحاته لإعادة الإمارة السعودية إلى سابق عهدها، وهم آل الرشيد وحلفاؤهم الأتراكُ العثمانيون، ومع ذلك تمكن من توطيد سلطاته في نجد الوسطى التي امتدت حدودها حتى جبلِ شَمَّرَ، مما دعا ابن الرشيد إلى الاستنجاد بالعثمانيين، فالتجأ عبد العزيز إلى البريطانيين الذين استجابوا له بتعيين الكابتن نوكس وكيلاً سياسياً في الكويت ليكون على مقربة منه ومن أحداث منطقة نجد. وفي سنة (١٩٠٤م) انتصر ابن سعود على ابن الرشيد في معركة شنانة مما جعل القوات العثمانية تتوقف عن القتال. وفي كل الأحوال تمكن عبد العزيز من إلحاق الهزائم بآل الرشيد إلى أن انتهت بمقتل ابن رشيد عام (١٩٠٦م) ليتخلص من خصم عنيد استخدمه العثمانيون ضده، مما اضطر خلفه متعب إلى عقد صلح مع ابن سعود اعترف بموجبه بسلطته في نجد والقصيم. ثم استغل ابن سعود ضعف الدولة العثمانية بعد حرب البلقان عام (١٩١٢م) فاحتلَّ إقليم الأحساء ورحل عنه الأتراك، الذين اعترفوا لا حقاً بعبد العزيز بن سعود والياً على نجد بالوراثة ومنحه لقب الباشاوية، ومن جهة أخرى وطد عبد العزيز بن سعود علاقته مع بريطانيا التي أرسلت له معتمدها في الكويت الكابتن شكسبير عام (١٩١٣م) الذي أجرى مباحثات معه أدت إلى عقد معاهدة (العقيرة) بين بريطانيا وعبد العزيز بن سعود عام (١٩١٥م) لتصبح بلاد نجد

تحت الحماية البريطانية مع الأعتراف باستقلال الشريف حسين في الحجاز.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى كانت شبه الجزيرة العربية مقسمة على النحو الآتي:

١ـ عبد العزيز آل سعود أميراً لنجد والأحساء والذي أصبح تحت الحماية البريطانية بعد قيام الحرب العالمية الأولى وعقد معاهدة العقيرة عام (١٩١٥م).

٢ـ الأشراف الذين يحكمون الحجاز.

٣ـ آل الرشيد الذين يحكمون (حائل) و(جبل شَمَّرَ) بالتحالف مع الدولة العثمانية.

٤ـ الأدارسة ويحكمون عسير.

٥ـ آل حميد الدين ويتولون إمامة اليمن في ظل السيادة العثمانية الاسمية.

جـ / الخليج العربي:

أثبتت الدراسات التاريخية أن سكان جانبي الخليج العربي هم من القبائل العربية، وأن تسميته من قبل الغربيين بالخليج (الفارسي) جاء نتيجة خطأ تاريخي ارتكبه االأسكندر عندما توجه إلى الوطن العربي عبر إيران.

وبقدر تعلق الأمر بشبه الجزيرة العربية فإن سواحلها الشرقية المطلة على الخليج العربي، قد كان لها تاريخٌ غير ذلك التاريخ الذي عاشته نجد والحجاز، وإن تمكن السعوديون الوهابيون من الوصول إلى سواحل عُمان والأحساء، ذلك أن تصدي القبائل العربية للغزو الأوربي الذي جاء باسم الاستكشافات الجغرافية قد جعل الصراع في الخليج العربي بين القوى المحلية العربية والغزاة الأوروبيين، بينما كان الصراع في معظمه داخل نجد والحجاز بين قوى عربية محلية، يضاف إلى هذا أن الفرس الإيرانيين قد دخلوا في الصراع إلى جانب الأوربيين ضد العرب على الرغم من الرابطة الإسلامية، التي تربطهم ببعضهم البعض.

تكونت في الخليج العربي وعلى الساحل الشرقي للجزيرة العربية مشيخات عربية صغيرة، شكلت فيما بعد أنظمة حكم سياسية محدودة المساحة. وكانت هذه المشيخات تعيش على الصيد والغوص لاستخراج اللؤلؤ والتجارة في البحر باستثناء عمان، التي تعتبر من أقدم الكيانات السياسية في منطقة الخليج العربي وأقواها،

والتي لعبت دوراً مهماً في مواجهة الغزو البرتغالي في مطلع العصور الحديثة.

عُمان والغزو الأوروبي:

تقع عمان في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية، وتتمتع بموقع استراتيجي لسيطرتها على مدخل الخليج عند رأس مسندم المعروف "بمضيق هرمز" ويرجع سكان عمان إلى قبائل قحطان اليمنية. وكانت موانيء سواحل عمان واليمن المطلة على البحر العربي من المراكز التجارية المهمة على طريق الهند؛ ولذلك كانت أول من تعرضت إلى الغزو الأوربي، وفي مقدمته الغزو البرتغالي في العصور الحديثة خلال فترة الاستكشافات الجغرافية في القطر العربي. كان البوكيرك البرتغالي أول من وصل مسقط عام (١٥٠٧م) وقام بقصفها وارتكب أبشع الجرائم من قتل ونهب وسلب واغتصاب بعد أن قاومته المدينة، ولم يكتف بكل هذا بل أحرق المدينة ومسجدها، ثم توجه إلى صَحَار فاحتلها، وقاومه أهل خورفكان فدمرها، ثم احتل هرمز فسيطر على مدخل الخليج العربي. وقد استمر الاستعمار البرتغالي لهرمز حوالي مائة سنة إلى أن استولى عليها الفرس المتحالفين مع البريطانيين، أما مسقط فقد بقيت بيد البرتغاليين مائةً وخمسين عاماً إلى أن طردهم العمانيون منها عام (١٦٥٠م).

قاوم اليعاربة في عمان الاستعمار البرتغالي بعد أن وحد كلمتهم ناصر بن مرشد اليعربي الذي تولى الإمامة فيها عام (١٦١٥م) وامتد حكم اليعاربة من بعده إلى عام (١٧٤١م) وأصبح لهم أسطول حربي ضخم تمكن من التصدي للبرتغاليين، ففي عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربي حرر العمانيون صحار عام (١٦٤٣م) وطردوا البرتغاليين منها ومن مطرح، وكانت الضربة القاضية للبرتغاليين في عامي (١٦٤٨ و١٦٤٩م) عندما قامت قوات عمانية بقيادة سعيد بن خليفة اليعربي وبمساندة من القوات العثمانية بتحرير مسقط بعد حصار ومعارك تكبد البرتغاليون فيها خسائر كبيرة، فانسحب البرتغاليون من عمان عام (١٦٥٠م) فكانت بداية النهاية لهم في الساحل العربي، فبعد سنتين من هذا التاريخ أنهى اليعاربة نفوذ البرتغاليين نهائياً من الخليج العربي وبحر العرب؛ بحيث امتد نفوذ اليعاربة إلى شرقي أفريقيا، ولكن الغزاة الأوربيين الآخرين تعاقبوا على منطقة الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ليحلوا محل البرتغاليين.

كان تحرير عمان من البرتغاليين بداية الطريق لليعاربة في بناء دولتهم التي امتد حكمها للفترة (١٦١٥ ـ ١٧٤١م) وازدهرت في عهد سلطان بن سيف (١٦٤٩ـ ١٦٦٨م) وابنه سيف بن سلطان (١٦٨٠ـ ١٧١١م) الذي استطاع انتزاع البحرين من الفرس ثم قاد خلفاؤه من بعده حروباً معهم انتهت بسيطرة الفرس على عمان للفترة (١٧٣٧ ـ ١٧٤٤م) بعد أن وقّعوا اتفاقاً مع البريطانيين، وتم تحرير عمان من الفرس على يد أحمد بن سعيد وهو الذي أسس أسرة البو سعيد التي تحكم عمان حالياً، وأصبح للبوسعيد مكانة في منطقة الخليج العربي حتى أنّ الفرنسيين والبريطانيين الذين سيطرت أساطيلهم على مياه الخليج العربي كانوا يحاولون التحالف معهم.

لعبت الأحداث الأوربية دورها في علاقة الأوربيين مع عمان خاصة والخليج العربي عامة، فعندما احتل نابليون مصر عام (١٧٩٨م) سارعت بريطانيا لإبرام معاهدة صداقة في أكتوبر / تشرين الأول عام (١٧٩٨م) بين سلطان عمان، سلطان بن الإمام أحمد، وشركة الهند الشرقية البريطانية بهدف الوقوف ضد المخططات الفرنسية التي تريد الوصول إلى الهند، ومنع المنافسة الهولندية في المنطقة وإضعاف الفرس في البحر العربي والحد من نفوذهم. وقد أعطت المعاهدة لبريطانيا امتيازات كثيرة بما فيها إقامة قوة بريطانية عسكرية في مسقط، وعدم السماح لفرنسا أو هولندا بالحصول على امتيازات في عمان، وفي حالة قيام حرب بين فرنسا وبريطانيا فإن على الأسطول البحري العماني الوقوف مع بريطانيا ذلك. وعندما أراد سلطان عمان اتباع سياسة الموازنة باسترضاء فرنسا رفضت بريطانيا وانتقلت في تعاملها مع سلطان عمان من سياسة المهادنة واللين إلى سياسة التهديد والضغط وضرب المصالح التجارية للسلطنة في الهند، فاضطر السلطان إلى عقد معاهدة جديدة عام (١٨٠٠م) أكدت المعاهدة السابقة وعُيِّنَ أول ممثل دبلوماسي بريطاني في مسقط.

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر دخلت الولايات المتحدة في المنافسة على الخليج العربي إلى جانب تنافس فرنسا وبريطانيا فاقترحت باريس على لندن إعلان استقلال سلطنة مسقط واحترام هذا الاستقلال، ووافقت بريطانيا وصدر بيان مشترك عام (١٨٦٢م) بهذا الخصوص، ومع ذلك أجبرت بريطانيا السلطان على توقيع اتفاقية عام (١٨٩١م) قيدته وورثته وخلفاءه بالارتباط ببريطانيا،

وكان من نصوص المعاهدة: أن لا يتخلى السلطان أو ورثته أو يرهنوا أو يبيعوا أو يسمحوا بالإستيلاء على مناطق مسقط وعمان وتوابعها إلا للحكومة البريطانية. لقد فرضت بريطانيا شروط هذه المعاهدة بمعاهدات أخرى شبيهه على مشيخات منطقة الخليج العربي مما جعل بريطانيا القوة الضاربة المسيطرة فيه.

كانت أسرة البوسعيد قد عقدت معاهدة اقتصادية مع الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٨٣٣م) قدمت لها فيها امتيازات كثيرة، وأصبح لهم قنصل أمريكي في مسقط يتمتع بحقوق؛ لحماية الرعايا الأمريكان في حالِ ظهور نزاع مع أهل البلاد. وفي سنة (١٨٦٨م) بايع العمانيون الإمام عزان بن قيس بن أحمد بن سعيد البوسعيدي الذي أعاد توحيد البلاد بعد صراعات دامية بين أفراد أسرة البوسعيد، ولكنه قتل من قبل تركي بن سعيد الذي تولى الحكم للفترة (١٨٧١ـ ١٨٨٨م) وفي عهده خضعت البلاد لبريطانيا خضوعاً تاماً، وعندما خلفه ابنه فيصل عقد معاهدة ١٩ مارس آذار (١٨٩١م) التي ذكرتها سابقاً، وقد استمر حكمه إلى عام (١٩١٣م) حين انتهى بعودة الإمامة إلى عمان واختيار سالم بن راشد الخروصي، الذي حاول السيطرة على جميع البلاد فقامت حروب انتهت بنهاية الحرب العالمية الأولى بتقسيم عمان إلى قسمين:

ـ إمامة عمان في المنطقة الجبلية الداخلية المقاوِمة للإنكليز.

ـ وحكومة القسم الثاني من عمان وتسمى حكومة مسقط على الساحل التي يقف معها الإنكليز. ولم يؤثر هذا القسم على وحدة الشعب العماني، لأن الحدود بين القسمين كانت صورية ووهمية.

ساحل المقاومة:

دأب الباحثون الغربيون على إطلاق اسم (ساحل القراصنة) على هذا الساحل لمقاومة سكانه العرب للبريطانيين الغزاة وغيرهم. وعندما فرضوا اتفاقيات ومعاهدات هدنة على شيوخه أطلقوا عليه اسم (الساحل المهادن) أو (الساحل المتصالح) وهو المنطقة التي تشغلها اليوم الإمارات العربية المتحدة.

قاد شيوخُ رأس الخيمة المعروفون بالقواسم المقاومة (الجهاد البحري) ضد السفن البريطانية منذ وصولها إلى مياه الخليج العربي، وقد أنشأ القواسم أسطولاً

بحرياً ضخماً وصلت قوته إلى ٦٣٠ سفينة كبيرة، و٨١٠ سفينة أصغر حجماً وبلغ عدد البحارة الجنود ٨٧٠٠ رجلاً، وسيطروا على الخليج العربي وطلبوا من البريطانيين في الهند دفع ضريبة للسماح لسفنهم بالمرور في الخليج العربي بحرية. وقد بدأ القواسم مقاومتهم (جهادهم البحري) ضد البريطانيين منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ففي عام (١٧٧٨م) قامت ست سفن عربية بأسر سفينة بريطانية اقتادوها إلى رأس الخيمة، وأفلتت من القواسم سفينة أخرى كانت في طريقها من البصرة إلى مسقط في شهر يناير / كانون الثاني (١٧٧٩م)، وفي الشهر التالي هاجموا سفينة ثالثة لاذت بالفرار فالتجأت إلى ميناء بوشهر الإيراني.

وفي سنة (١٧٩٠م) أسر القواسم سفينة بكلربك المبحرة تحت العلم البريطاني قرب رأس مسندم كما هاجمت سفن القواسم سفينة بريطانية بالقرب من جزيرة قيس وأسروها واقتادوها إلى رأس الخيمة عام (١٧٩٧م)، وفي العام نفسه هاجم الأسطول العربي القواسمي الطراد البريطاني (فايبر) الذي كان راسياً في بوشهر، فلاذ بالفرار مخلفاً من القتلى أكثر من ثلاثين بحاراً بريطانياً.

إن هذا النشاط العسكري البحري المتمثل بمقاومة التغلغل البريطاني في الخليج العربي كان أحد أهدافه منع الأوربيين عموماً والبريطانيين بشكل خاص من السيطرة على طرق التجارة العربية والأرض العربية، ولذلك فهي مقاومة وطنية عربية ولم تكن مطلقاً (قرصنة) كما أسماها الأوربيون زوراً وبهتاناً، وقد اتبع القواسم أسلوب المراوغة في تبرير مهاجمتهم أمام الاحتجاجات البريطانية بالادعاء بالخطأ أو الدفاع عن النفس وغير ذلك.

امتد نشاط القواسم البحري إلى المحيط الهندي، وظهرت سفنهم شمالي بومباي عام (١٨٠٨م) التي تعرضت للسفن الأوربية، ورغم عقد معاهدة بين بريطانيا والقواسم عام (١٨٠٦م) إلا أن الخليج العربي شهد نشاطاً بحرياً قواسمياً ملحوظاً، وصارت المياه العربية تحت سيطرة أسطولهم مما أقلق البريطانيين، خصوصاً وأن سفن أسطول القواسم تمكنت من أسر عشرين سفينة تجارية هندية ترفع العلم البريطاني في البحر العربي والمحيط الهندي في أواخر عام (١٨٠٨م) ومطلع عام (١٨٠٩م)، وكانت خمسة وخمسون سفينة قواسمية قد هاجمت في آذار

/ مارس (١٨٠٨م) سفينة تجارية ضخمة تسمى (منيرفا) في رأس مسندم، وأَسَرَتْها بمن عليها وضمتها إلى أسطول القواسم ولم تطلق سراح بحَّارتها إلا بعد دفع غرامة مالية، وقد بلغت جرأة القواسم حداً جعلهم يهاجمون سفينةً بحريةً ملكيةً بريطانيةً ذات خمسين مدفعاً عام (١٨٠٩م).

إن الخسائر الفادحة التي حلت بالسفن البريطانية الحربية والتجارية قد دفعت بريطانيا إلى تجهيز حملة بحرية كبيرة عام (١٨٠٩م) ابتدأت بتوجيه ضربات مدفعية إلى مدينة رأس الخيمة، ثم اقتحموا المدينة واحتلوها، لكنهم لم يصمدوا فيها سوى يومين بفعل المقاومة العربية ضدهم، فانسحب البريطانيون منها وغادروها عائدين إلى مسقط ليسجل القواسم أول نصر كبير لهم في مواجهة القوات البريطانية براً وبحراً، وما إن حل عام (١٨١٢م) حتى عادت سفن القواسم إلى مهاجمة السفن البريطانية أو السفن التي ترفع العلم البريطاني وظهرت سفنهم من جديد أمام شواطئ الهند أواخر عام (١٨١٣ و ١٨١٤م) التي يحتلها البريطانيون، وأخيراً وفي أكتوبر / تشرين الأول عام (١٨١٤م) عقد القواسم مع المقيم البريطاني في الخليج العربي معاهدة عدم اعتداء بين الطرفين، وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول لمدة عام، عادت بعده سفن القواسم إلى نشاطها في الخليج العربي ضد السفن الأجنبية بما فيها التي ترفع العلم البريطاني، وامتد نشاطهم المتصاعد من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر إضافة إلى الخليج العربي، حيث هاجم القواسم سفناً أمريكية وفرنسية في المحيط الهندي، وثلاث سفن هندية ترفع العلم البريطاني في مدخل البحر الأحمر في مارس / آذار عام (١٨١٦م).

قرر البريطانيون وضع حد لمقاومة القواسم وذلك بتوجيه ضربة قاسية لهم في عقر دارهم، فقاموا بمهاجمة مدينة رأس الخيمة عام (١٨١٩م) ودمروها ثم فرضوا عام (١٨٢٠م) معاهدة على زعماء القواسم صارت أساساً لمعاهدات مشابهة وقّعها شيوخ الشارقة ودبي وأبو ظبي وعجمان وأم القوين وغيرها، وتم توقيع المعاهدة مع رأس الخيمة في شهر يناير / كانون الثاني عام (١٨٢٠م) وصارت الأساس الذي ثبتت بريطانيا عليه أقدامها في الخليج العربي منذ ذلك الوقت، وقد عرفت هذه المعاهدة بالمعاهدات المانعة التي فرضت على المشيخات في ساحل المقاومة الشروط التالية:

١ـ التوقف عن المقاومة (الجهاد البحري) أو أية عمليات بحرية تهدد السلم والأمن في الخليج العربي، أو تعيق حركة الملاحة والمواصلات الإمبراطورية البريطانية.

٢ـ عدم الاتجار بالسلاح أو إدخاله إلى منطقة الخليج العربي.

٣ـ عدم الاتجار بالرقيق أو جلبهُ إلى مشيخات الخليج العربي.

٤ـ عدم التنازل عن أية أرض من المشيخات لأية قوة أجنبية دون موافقة بريطانيا.

وقد تحولت هذه المعاهدات لاحقاً إلى معاهدات حماية استمرت إلى النصف الثاني من القرن العشرين.

إن توقف القواسم عن المقاومة والجهاد البحري ضد البريطانيين لم يمنع قوى عربية في المنطقة من مهاجمة السفن البريطانية، ففي عام (١٨٢٩م) هاجمت قوة بحرية عربية السفينة البريطانية (سنبرتي) واستولت على حمولتها، لكن شيخ الشارقة عاقب الذين قاموا بهذه العملية، وفي أبريل / نيسان عام (١٨٣٥م) قامت ست سفن تابعة لعرب (بنو ياس) بمهاجمة سفينة حربية بريطانية، وكانوا قد استولوا على خمس عشرة سفينة أجنبية من قبل، وبعد هذا التاريخ فرضت بريطانيا ما أطلقت عليه اسم الهدنة البحرية لمنع أي نشاط بحري معادٍ لها، ومع ذلك استمرت المقاومة هنا وهناك مما دفع البريطانيين إلى توجيه ضربة عسكرية من البحر إلى مدن الدوحة والوكرة والعديد عام (١٩٣٦م).

المقاومة العربية في إقليم الأحساء:

كان هذا الإقليم تحت السيطرة العثمانية، ولذلك واجهت بريطانيا صعوبة في السيطرة عليه وعلى عمليات المقاومة التي كانت تنطلق منه خلال عامي (١٨٧٨ـ ١٨٧٩م) حيث لم تستطع السفن البريطانية الدخول إلى المياه الإقليمية للدولة العثمانية، كما شهدت مياه شط العرب عام (١٨٨٠م) عملية ضد البريطانيين قتل فيها المشرف على محطة البرق البريطانية في الفاو، وحينها أصدرت السلطات البريطانية أمراً عام (١٨٨١م) لقائد بحريتها في الخليج العربي بدخول تلك المياه وتعقب السفن العربية وعدم التقيد بمسألة السيادة العثمانية، ثم فوجئت بريطانيا عام (١٨٩٩م) بعملية بحرية عربية كبيرة قادها أحد أعضاء الأسرة الحاكمة البحرانية ضد

البريطانيين، واستمرت عمليات المقاومة بدرجات متفاوتة ضد البريطانيين حتى عام (١٩٠٥م) في ساحل الأحساء أو على سواحل قطر،

في عام (١٩٠٠م) شهد شط العرب مقاومة عربية ضد السفن البريطانية والهندية وغارات ضد سفن إيران، وشهدت سواحل قطر عمليات مقاومة بحرية قوية، جعلت بريطانيا تهدد بضرب مدن قطر وقامت بتظاهرة بحرية لإرغام الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني على التعاون معها للقضاء على المقاومة، ومع ذلك لم تتمكن بريطانيا من السيطرة على الساحل إلا بعد فرض الحماية على قطر عام (١٩١٦م)، لأن شيوخ قطر لم يتعاونوا مع البريطانيين في فرض السيطرة على قوى المقاومة في قطر.

قطر:

تشترك شبه جزيرة قطر في حدودها البرية من الجنوب مع إمارة أبو ظبي والسعودية وهي قريبة جداً من البحرين والأحساء، احتل البرتغاليون قطر عام (١٥١٧م)، وارتكبوا جرائم وحشية من قتل وتدمير ضد سكانها العرب مثلما فعلوا في عمان، واستمرت سيطرتهم عليها إلى أن طردهم العثمانيون منها عام (١٥٥٥م) عندما استطاع الأسطول العثماني الذي أرسله السلطان سليمان القانوني من دحرهم في قطر والبحرين.

ظهر حكامُ قطر الحاليّون من آل ثاني في قطر أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، وهم أصلاً من بني تميم ويرجع موطنهم الأصلي إلى بلاد نجد، وقد واجه آل ثاني مشكلة تبعيتهم لحكام البحرين من آل خليفة ودفعهم الضرائب لهم، ولذلك سعى آل ثاني للتخلص من هذه التبعية بكل الوسائل. وفي عام (١٨٦٧م) وقع قتال بين محمد بن ثاني شيخ قطر، ومحمد بن خليفة حاكم البحرين بسبب ضريبة كان يدفعها حاكم قطر إلى حاكم البحرين ووقف الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي مع البحرين، فكانت هذه الحملة مدمرة لأهل قطر، لكنهم انتقموا عندما شنوا هجوماً مضاداً كبدوا فيه البحرين خسائر فادحة، فتدخلت بريطانيا على أساس أن البحرين أخلت بتعهداتها المنصوص عليها في اتفاقيتها مع بريطانيا عام (١٨٦١م) بعدم الاعتداء على الغير، وإخبار المقيم السياسي البريطاني في الخليج

العربي في حالة حصول ذلك. وعليه قررت استبعاد الشيخ محمد بن خليفة وتعيين أخيه مكانه في الحكم، وأجبرت البحرين على توقيع اتفاقية سلام عام (١٨٦٨م) دفعت البحرين بموجبها غرامة كبيرة بسبب انتهاكها لاتفاقية عام (١٨٦١م) خصص منها ٢٠٪ إلى شعب قطر، وذهب المقيم بعد ذلك إلى الوكرة وفرض على الشيخ محمد بن ثاني شيخ قطر معاهدة بين البحرين وقطر، تعهد فيها شيخ قطر أن لا يتدخل في منازعات البحرين الداخلية، وأن لا يخرق السلام البحري، وأن لا يتحالف مع البحرين وحددت الجزية التي تدفعها قطر للبحرين، وكان لهذه المعاهدة وجهان:

الأول: اعتراف بريطانيا بقطر ككيان سياسي.

والوجه الثاني: تخليها عن اعتبار قطر تابعة للبحرين وانحسار سلطة آل خليفة عنها.

كانت الدولة العثمانية قد استعادت اهتماماتها بالجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس عام (١٨٦٩م) ولذلك وعندما استنجد عبد الله بن فيصل بوالي بغداد مدحت باشا للوقوف معه ضد أخيه سعود بن فيصل، الذي احتل الأحساء بعد أن دحره عبد الله في البحرين وقطر عام (١٨٧٠م)، استجاب مدحت باشا وأرسل حملة عسكرية عثمانية استولت على الأحساء وقطر وأقامت فيها حامية عثمانية وأعلنت قطر قائم مقام تابعة لمتصرف الأحساء التابع لولاية البصرة في عام (١٨٧٣م) وتوقفت قطر عن دفع الجزية إلى البحرين؛ لأنها أصبحت تحت السيادة العثمانية، وقد بقي الحكم العثماني في قطر إلى عام (١٩١٣م).

توفى محمد بن ثاني عام (١٨٧٨م) وخلفه ولده ونائبه الشيخ قاسم آل ثاني الذي يعتبر مؤسس إمارة أل ثاني المستقلة في قطر، كان الشيخ قاسم شخصية عربية قوية اتسم بالشجاعة والورع والتقوى، ووحد صفوف القطريين ووضع حداً لخصومه ومنافسيه من شيوخ وأمراء، ثم انتقل إلى التخلص من هيمنة آل خليفة بأن دعا العشائر في قطر إلى الاستقلال عن البحرين وشن عليهم هجمات برية وبحرية انتهت باستقلال قطر، ولكنه بقي قائم مقام تحت السيادة العثمانية التي وقفت إلى جانبه واعترفت به حاكماً رسمياً للدوحة عام (١٨٧٩م) ورحب هو بها لكي يحجم الخطر

البريطاني ومعاهداته معه، وقد سبب ذلك مماحكات سياسية وتوتر في العلاقات بين الدولة العثمانية وبريطانيا بسبب قطر. ومع ذلك استمرت الدولة العثمانية تقف إلى جانبه وبقي هو مستنداً إليها أمام المشاكل، التي كانت تثيرها بريطانيا، ومنها اتهامه بمساندة المقاومه ضدها في الخليج العربي. وأكدت الدولة العثمانية مساندتها له عندما قامت قوة عسكرية عثمانية بحماية الدوحة عام (١٨٨٨م) حينما خاض الشيخ قاسم معركة خارج الدوحة مع زايد بن خليفة إثْرَ مقتل علي بن الشيخ قاسم.

لجأ البريطانيون إلى عدة أساليب لإضعاف الشيخ قاسم، منها إثارة القبائل القطرية ضده، ومحاولة إقناع الدولة العثمانية بأنه يريد الاستقلال عنها مستغلين انزعاج العثمانيين من ازدياد نفوذ الشيخ قاسم. وفي عام (١٨٩٣م) أرسل العثمانيون والي البصرة إلى الدوحة للتفاهم معه، لكن الشيخ قاسم أرسل أخاه أحمد فانزعج الوالي واحتجزه مع المبعوثين المرافقين له، فقامت معركة شرسة قادها الشيخ قاسم بنفسه وانتصر فيها على قوة الوالي العثماني فاستغل البريطانيون الفرصة وعرض عليه المقيم البريطاني في الخليج العربي حمايتهم إلا أن الشيخ قاسم رفض ذلك واستمرت علاقته بالعثمانيين إلى أن توفي عام (١٩١٣م) لكن هذه العلاقة كانت اسمية لا سلطة فعلية للعثمانيين عليه، ولذلك يعتبره المؤرخون القائد الذي حقق استقلال قطر عن البحرين ولم يسمح للعثمانيين والبريطانيين بالسيطرة عليه.

تولى الحكم بعد الشيخ قاسم ولده عبد الله وكانت الظروف الدولية تهيئ لقيام الحرب العالمية الأولى في الوقت الذي ضعفت فيه الدولة العثمانية وأجبرت على تسوية أمورها في الخليج العربي لصالح بريطانيا، فعقدت معاهدة في ١٩ يونيو / حزيران (١٩١٣م) تضمنت تنازل الدولة العثمانية عن جميع حقوقها في شبه جزيرة قطر على أن يستمر حكم آل ثاني فيها وأن لا يتدخل شيخ البحرين في شؤونها الداخلية أو يحاول ضمها إلى أراضية، وانسحبت الحامية العثمانية من الدوحة عام (١٩١٥م) وأصبحت علاقة عبد الله بن الشيخ قاسم جيدة مع البريطانيين. وفي عام (١٩١٦م) خلال الحرب العالمية الأولى اضطر الشيخ عبد الله إلى توقيع معاهدة مع بريطانيا على غرار المعاهدات التي عقدتها مع شيوخ ساحل المقاومة وعمان.

البحرين:

هي مجموعة من الجزر الخضراء يبلغ عددها ٣٥ وأهمها المنامة، مستطيلة الشكل يفصلها عن شبه جزيرة قطر خليج يسمى (بحر سلوى) وهو الذي يفصل أيضاً بين قطر وساحل الأحساء، بمعنى: أن البحرين تقع بين قطر وساحل الأحساء على الخليج العربي. كانت البحرين شأنها شأن عمان وساحل المقاومة وقطر، محط أنظار الغزو الأوربي، وفي مقدمتهم البرتغاليين فقد قاومهم أهل البحرين وقامت بينهم معارك عديدة ومنها معركة عام (١٥١٤م) التي قادها الشيخ مقرن البحراني ووصفت من قبل المؤرخين بأنها معارك بطولية خاضها أهل البحرين ضد البرتغاليين، كما ثاروا على الحامية البرتغالية في البحرين عدة مرات لدرجة أنهم شنقوا الحاكم البرتغالي عام (١٥٢٢م)، وتصاعدت مقاومتهم سنة (١٥٢٩م) حتى طردوا البرتغاليين من البحرين نهائياً عام (١٦٢٢م)، وقد قدمت بريطانيا العون لهم وحثت دولة فارس على المشاركة معها في تقديم العون مما جعل الفرس يهيمنون على البحرين بحجة إنقاذهم لها من البرتغاليين، مع أن بطولات أهل البحرين وضعف البرتغاليين في هذه المرحلة بعد انتصار اليعاربة عليهم، وطردهم من عمان هي التي أرغمت البرتغاليين على الرحيل من البحرين والخليج العربي.

وقف أهل البحرين ضد الوجود العثماني أيضاً عندما حاول السلطان سليمان القانوني احتلال البحرين بعد احتلاله لبغداد عام (١٥٣٤م) ولذلك فشلت محاولات العثمانيين في السيطرة عليها، بينما استمرت الهيمنة الفارسية من خلال حاكم عربي تابع للفرس من عام (١٦٢٢م) إلى أن حررها آل خليفة عام (١٧٨٣م).

يعود نسب آل خليفة إلى عشيرة (عنزة) وهم من العتوب نزحوا إلى قطر واستقروا في الزيارة على الشاطئ الغربي لقطر عام (١٧٦٦م) بزعامة الشيخ محمد بن خليفة، ونظراً لسلوكه الحكيم ورجاحة عقله وإكرامه للفقهاء وإنشائه للمدارس والمساجد فقد أعجب به الأهالي وولوه شيخاً عليهم. ولما كانت البحرين والزيارة تحت التسلط الفارسي، فقد خاض آل خليفة معارك طاحنة مع الفرس انتهت بانتصارهم عليهم في الزيارة مما حفزهم على الزحف إلى البحرين والسيطرة عليها عام (١٧٨٣م) وطردوا منها الحاكم العربي المعيّن من قبل الفرس.

وعندما توفى الشيخ محمد بن خليفة تولى المشيخة في الزيارة والبحرين أخوه أحمد (١٧٨٣ـ ١٧٩٦م) وكان قد لقب بـ (الشيخ الفاتح) لدوره الرئيس في فتح البحرين وتخليصها من الفرس، ثم حكم من بعده ولداه سلمان، وعبد الله عام (١٧٩٦م) اللذان حكما البحرين حكماً ثنائياً ولكن بعد وفاة سلمان عام (١٨٢٥م) حاول أخوه عبد الله الانفراد بالمشيخة، بإبعاد أبناء سلمان وتقريب أبنائه، فكانت البداية لصراع عائلي كان له تأثيره على الاستقرار السياسي في البحرين واضعاف وحدة القبائل، فاستغل البريطانيون الصراع بين الإخوة وأرسلوا أسطولهم إلى البحرين فاحتلها، ونفى القادة المتصارعين إلى الهند ونصبوا عيسى بن علي آل خليفة بعد التشاور مع القبائل البحرينية وذلك عام (١٨٦٩م)، وقد حكم ٥٤سنة أرغمه البريطانيون بعدها على ا لتنازل عن الحكم لأكبر أبنائه الشيخ حمد بن عيسى عام (١٩٢٣م).

شهد مطلع القرن التاسع عشر صراعاً محلياً على البحرين بين الوهابيين والعمانيين، وقد حاول حاكم مسقط التمسك بسيطرته على البحرين لكنه لم يتمكن واكتفى بالجزية التي يدفعها له آل خليفة. من جانب آخر واجهت البحرين مشكلة زحف قوات محمد علي باشا والي مصر الذي وصل إلى شواطئ الأحساء عام (١٨٣٨م)، إذ إن البريطانيين قلقوا من هذا الزحف وأجبروا الشيخ عبد الله آل خليفة على كتابة تعهد خطي بعدم إجراء مفاوضات مع محمد علي باشا أو العثمانيين، وفي كل الأحوال فإن البريطانيين كانوا قد عقدوا مع شيخ البحرين عام (١٨١٩م) اتفاقاً تعهد بموجبه أن يقف ضد المقاومة العربية في الخليج العربي باسم مكافحة (القرصنة). وفي عام (١٨٨٠م) عقدوا مع أميرها عيسى بن خليفة معاهدة جديدة أصبحت البحرين بموجبها محمية بريطانية. وازدادت أهمية البحرين عند اكتشاف النفط فيها عام (١٩٠٨م)، وفي عام (١٩١٤م) عقدت أول اتفاقية نفطية بين الشيخ عيسى، والوكيل البريطاني الميجور تريفور، تعهد فيها الشيخ أن لا يقوم باستغلال النفط بنفسه ولا يسمح لأي شركة باستغلاله من دون مشورة الوكيل البريطاني في البحرين ومن دون موافقة الدولة البريطانية.

الكويت:

تُعَدُّ الكويت امتداداً طبيعياً لبلاد وادي الرافدين في جنوبي العراق، وهي تطل على رأس الخليج العربي في شماله العربي وجاء في المصادر أن اسم الكويت هو

تصغير كلمة (الكوت) أي: البيت حسب تسمية أهل العراق. وكانت قبيلة «بنو خالد» هي التي تحكم الكويت من قبل أمرائها آل عريعر، وقد وهب هؤلاء آل الصباح كوتاً على الساحل الشمالي الغربي من الخليج بعد أن نزحوا من قطر نتيجة طردهم منها لقيامهم بأعمال السلب والنهب حسبما يذكر (لوريمر) في كتابه «دليل الخليج»، ثُمَّ إنهم تنقلوا في الخليج العربي إلى أن قدم لهم أمراء آل عريعر المأوى فاستقروا في الكويت، وبدأوا بالتوسع إلى أن استولوا على أرض الكويت من بني خالد.

اختار آل الصباح، صباح الأول شيخاً عليهم في الكويت عام (١٧٥٩م) وخلفه ابنه عبد الله بعد ست سنوات، واستمر حكمه من عام (١٧٦٢ـ ١٨١٢م)، وفي زمنه حاول السعوديون الوهابيون الاستيلاء على الكويت لكنهم أخفقوا، خصوصاً وأن الكويت كانت تحت الحكم العثماني. وبحكم العلاقة الجغرافية والتاريخية مع البصرة، فقد هاجر إلى الكويت الكثير من أهلها واستقروا فيها هرباً من الفرس الذين هاجموا البصرة واحتلوها عام (١٧٧٦م)، وقد أدى ذلك إلى تحول الطريق التجاري لشركة الهند الشرقية وغيرها من البصرة إلى الكويت فنشطت حركة التجارة فيها.

بعد وفاة عبد الله الصباح خلفه في المشيخة ولده جابر عام (١٨١٢م) واستمر حكمه حتى عام (١٨٥٩م)، وقد استجاب لطلب السلطات العثمانية في الوقوف مع قواتها لاسترداد البصرة من الفرس، وتم ذلك عام (١٧٧٩م)، أي: بعد ثلاث سنوات من احتلال الفرس لها. ثم توالى على مشيخة الكويت بعد وفاة عبد الله، ابنه صباح الثاني ومن بعده ولده عبد الله(١٨٦٦ـ ١٨٩٢م) وخلال مشيخته هذه على الكويت اعترف عبد الله بالحماية العثمانية على الكويت عام (١٨٧١م) ورفع العلم العثماني على قصره.

ضعف آل سعود في نجد عندما احتدم الصراع بين سعودِ بنِ فيصل الذي تمرد على أخيه عبد الله، واستولى على الأحساء، فاستنجد عبد الله بن فيصل بوالي العراق مدحت باشا العثماني، فوجه هذا الأخير أوامره إلى عبد الله بن صباح للاشتراك في الحملة العسكرية ضد سعود بن فيصل بعد أن وجدها فرصة لتثبيت النفوذ العثماني في الأحساء، فتولى عبد الله الصباح قيادة الحملة البحرية بينما تولى أخوه مبارك الصباح قيادة القوات البرية العثمانية واحتلوا الأحساء وقطر، فاستعاد العثمانيون سلطتهم الاسمية عليها، وقد كافأ مدحت باشا عبد الله صباح الذي زاره

وجعله قائم مقام للكويت التي أصبحت قائمقامية تابعة لولاية البصرة بعد أن تم تقسيم العراق إدارياً إلى ثلاث ولايات: هي بغداد، والموصل، والبصرة. وفي عهد القائمقام مبارك الصباح (١٨٩٦ـ ١٩١٥م) منحه العثمانيون لقب باشا.

كانت الدولة العثمانية قد أصابها الوهن والضعف وأطلق عليها الأوروبيون في القرن التاسع عشر (الرجل المريض)، فاستغلت بريطانيا هذه الحالة لتثبيت أقدامها في مناطق الخليج العربي الواقعة تحت السلطة العثمانية ومنها الكويت، ولذلك وقفت ضد الاتفاق العثماني الألماني بمنح ألمانيا امتياز إنشاء سكة حديد تربط بين اسطنبول ورأس الخليج العربي مروراً ببغداد والبصرة، حيث ينتهي الخط عند رأس (كاظمة) على الخليج العربي بصفتها منطقة جغرافية واحدة. إلا أن بريطانيا شعرت بخطورة هذا المشروع الذي سيهدد طرقها التجارية ومستعمراتها في الهند وآسيا فأوقفت المشروع ومنعت الدولة العثمانية من تنفيذه.

وإذا ما عدنا قليلاً إلى الوراء وتتبعنا علاقة بريطانيا بالكويت فإنها كانت قد بدأت مع عام (١٧٧٥م) عندما حاصر الفرس البصرة، فحوَّل البريطانيون طريق بريدهم القادم من الهند عبر الخليج العربي المتجه إلى حلب من بلدة الزبير إلى مدينة الكويت، فأصبحت لهم علاقات جيدة مع آل الصباح مما دفعهم إلى نقل الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت، وفي عام (١٧٩٣م) أقام البريطانيون أول اتصال تجاري مع الكويت ثم أقام فيها أول ضابط سياسي بريطاني عام (١٨٢١م) في جزيرة فيلكة مع أن الكويت كانت تابعة للعثمانيين، وكان هناك خلاف بين الإنكليز والوالي العثماني داود باشا أدى إلى مغادرة الممثل البريطاني مستر ريتش دار الاعتماد البريطانية في بغداد إلى الخليج العربي، ولكن ذلك لم يكن ذا تأثير نتيجة ضعف الدولة العثمانية والتغلغل الأوربي فيها والذين باشروا باحتلال الوطن العربي وتقاسمه فيما بينهم منذ احتلال الجزائر عام (١٨٣٠م).

وفي عام (١٨٩٦م) غدر مبارك الصباح بأخيه محمد الصباح شيخ الكويت فقتله ليلاً وهو نائم وتولى مكانه المشيخة، ولما كان محمد الصباح قائم مقام رسمياً للكويت وموالياً للدولة العثمانية، فقد غضبت السلطة العثمانية من تولي مبارك المشيخة وطلبت من حليفها ابن الرشيد القضاء عليه؛ لأنه قتل أخاه بدعم من البريطانيين وبعلم منهم، فتقدم ابن الرشيد بقواته لاحتلال الكويت لإعادة أبناء

محمد الذي اغتاله مبارك إلى مشيختهم، ووقعت معركة عند قرية الصريف الواقعة على بعد عشرين ميلاً شمالَ شرقِ بريدة في القصيم هزم فيها مبارك الصباح وانسحب بفلول قواته إلى الكويت تتبعه قوات ابن الرشيد وبإسناد من الدولة العثمانية للقضاء على مبارك الصباح وحليفة السعودي عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، وهنا تدخلت بريطانيا لإنقاذ حليفها مبارك فتقدمت البارجة الحربية الإنكليزية (لابوينغ) ورست على ساحل الكويت وأعلن قائد البارجة أن مبارك الصباح صديق لصاحب الجلالة ملك بريطانيا وأن حكومة لندن أخذت على عاتقها حمايته ولا توافق على عزله وأرسل مندوباً إلى ابن الرشيد أنذره بوجوب مغادرة المنطقة، في الوقت نفسه أبلغت الحكومة البريطانية السلطان العثماني الضعيف أن قرارها لا يحتمل النقاش، فاضطرت الحكومة العثمانية إلى الرضوخ للإنذار وطلبت من ابن الرشيد مغادرة منطقة الكويت.

إن هذا الدعم البريطاني لا يعني أن الكويت قد خرجت عن سلطة الدولة العثمانية، ولذلك بذل مبارك الصباح جهوداً استثنائية وانفق اموالاً طائلة أرسلها إلى بغداد واسطنبول لتعيينه قائم مقام للكويت بدلاً من أخيه محمد الذي قتله. وفي ديسمبر / كانون الأول عام (١٨٩٧م) صدرت إرادة سلطانية بتعيينه قائم مقام للكويت يتبع لمتصرف البصرة ضمن ولاية البصرة العراقية.

كان لمشروع سكة حديد (برلين ـ بغداد ـ كاظمة) أثره في نفوس البريطانيين الذين زادت مخاوفهم أكثر عندما منحت الحكومة العثمانية روسيا امتياز إنشاء خط للسكة الحديد يربط طرابلس على البحر المتوسط مع الكويت عبر حمص وبغداد، وقد وجدوا في ضعف الدولة العثمانية إمكانية عقد معاهدة مع مبارك الصباح شبيهة بالمعاهدة التي عقدوها مع مسقط عام (١٨٩١م)، لوضع حد للطموحات الألمانية والروسية في الخليج العربي، وكان مبارك الصباح قد طلب وضع نفسه تحت الحماية البريطانية منذ توليه المشيخة بعد أن قتل أخاه عام (١٨٩٦م)، وبناء على كل هذا طلب وزير الخارجية البريطاني سالزبوري من المقيم البريطاني في بوشهر الكولونيل مالكوم جون ميد الاتصال بمبارك الصباح لعقد الاتفاقية، وفي يوم ٢٣ كانون الثاني / يناير (١٨٩٩م) وقع مبارك الصباح الاتفاقية مع المقيم البريطاني «جون ميد» وكان نصها كالأتي:

((إن الشيخ مبارك بن صباح بكامل حريته يرغب أن يرتبط ويلزم وارثيه وخلفه في الحكم بأن لا يستقبل أي وكيل أو ممثل لأي سلطة أو حكومة في الكويت أو في مكان أخرمن حدود مقاطعته دون الموافقة السابقة للحكومة البريطانية، وبالإضافة إلى ذلك يلزم نفسه ووارثيه وخلفه في الحكم بأن لا يتنازل، أو يبيع، أو يؤجر أو يرهن، أو يعطي ـ للاستغلال، لأي غرض كان ـ جزءاً من مقاطعته لأي حكومة أو رعايا أي سلطة دون الموافقة السابقة لهذه الأغراض من حكومة بريطانيا، وهذا الاتفاق يمتد لأي جزء من المقاطعة التابعة للشيخ المذكور، مبارك بن صباح التي تقع الآن في حوزة رعايا أي حكومة أخرى)).

لقد وقع مبارك الصباح هذه الاتفاقية دون علم من الدولة العثمانية بمعنى أن ولاءه أصبح سراً لبريطانيا مع أنه كان يشغل موقع قائم مقام الكويت، وعندما علمت السلطات العثمانية بالاتفاقية حاولت تأكيد سلطتها على الكويت، فأبلغ سفير بريطانيا في اسطنبول الباب العالي العثماني أن بريطانيا ليس لها أي هدف معين في الكويت سوى العلاقة الودية مع آل صباح، وهذا يعني استمرار التبعية الكويتية إلى الدولة العثمانية رغم الاتفاقيات التي عقدتها بريطانيا معها لا حقاً. وهكذا انتهت المشاريع العثمانية الألمانية والروسية إلى الأبد، وانتهى الجدل بين الباب العالي العثماني والحكومة البريطانية بعقد اتفاق ٩ سبتمبر / أيلول عام (١٩٠١م) بين الحكومتين اعترفت فيه الحكومة العثمانية بالوضع القائم في الكويت بشرط أن لا تحتل بريطانيا الكويت ولا تبسط حمايتها عليها كونها قائم مقام تابعة لمصرفية البصرة وولايتها العثمانية. وفي ٢٩ يوليو / تموز عام (١٩١٣م) عقدت الدولة العثمانية اتفاقية مع بريطانيا تخلت فيها عن سلطتها الاسمية على عمان وقطر والبحرين، بينما بقيت الكويت وفقاً للاتفاقية قائمقامية تابعة لولاية البصرة العثمانية على أن تتمتع بنوع من الحكم الذاتي، وهذا يعني أن الكويت بقيت من دون كل مناطق الخليج تابعة للدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها، مما خلق مشكلة مطالبة العراق بضمها إليه على أساس أنها جزء من أراضية التي كانت أيام العثمانيين مقسمة إدارياً إلى ثلاث ولايات تتبع الكويت الولاية الجنوبية منها، وهي ولاية البصرة. ولذلك وعندما أعلن البريطانيون قيام كيان سياسي في الكويت عام (١٩٦١م) عارض العراق ذلك، وأعلن أن شيخ الكويت هو قائم مقام تابع

لمتصرفية لواء البصرة العراقي. والحقيقة أن الدولة العراقية منذ تأسيسها عام (١٩٢٠م) كانت تنظر إلى الكويت على أنها جزء منها وتعتبر اقتطاعها محاولة من بريطانيا لمنع العراق من إيجاد منفذ له على الخليج العربي، وقد تصاعدت هذه القضية وسببت مشاكل سياسية وحروب اتخذت طابعاً إقليميا ودولياً في تاريخ العراق والعرب المعاصر.

obeikandl.com